كلمة العدد

نحن والأزمة التي تجتاح العالم

بقلم : سمو الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

لاشك أن العالم يمر بأزمة طاحنة . . هذه الأزمة هي السابعة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥م ولكن كل المؤشرات تقول إنها قد تكون الأشد . بعض الدول أعلنت عن معاناتها مثل اليونان . . والله وحده يعلم إلى أين تسير هذه الأزمة . . وإلى أين ستنتهي . . لقد أكد الخبراء أن الجهاز المصرفي خاصة في أمريكا هو سبب هذه الأزمة التي انعكست آثارها الخطيرة ومازالت على العالم كله . . ذلك أن الجهاز المصرفي تجاهل القواعد الأخلاقية في تعاملاته . . وفقدان الأخلاق ليس في الاقتصاد وحده . . وإنما في أي مجال من مجالات النشاط

الإنساني يمكن أن يؤدي إلى كوارث . وذلك هو الدرس الأول للأزمة الحالية . . أو هذا هو الهم الأكبر الذي يواجه العالم الآن . ونحن في البحرين جزء من هذا العالم ، وتداعيات ما يحدث في الكرة الأرضية يجب أن تدفعنا للتأمل في أحوالنا .

لقد استطاعت السياسة الحكيمة والتي يدير دفتها جلالة الملك حمد بن عيسى أن تسير بالبلاد في أمان وسلام . . رغم العواصف العاتية التي تجتاح كل محيطات العالم . . لقد أعلن جلالة الملك برنامجه الرائع للإصلاح . . ومنذ الإعلان عن ذلك البرنامج وهو يتابعه بكل الاهتمام . . يراقب عن قرب كل كبيرة وصغيرة . . يواصل توجيهاته . . ويصحح المسار لتستمر المسيرة على الدرب السليم . ولتحافظ سفينة الوطن على انطلاقتها المأمولة . . يحمي . ويصون . ويوجه . رغم ما يكلفه ذلك من عناء ومشقة وجهد، لا يبخل جلالته بشيء منها من أجل صالح الوطن والمواطن .

في البحرين تسير الأمور من حسن إلى أحسن . واستطاعت البلاد بفضل هذه السياسة الحكيمة، والبراعة الموروثة في قيادة سفينة الوطن، أن تتجنب التداعيات الصعبة لهذه الأزمة العالمية . فالرقابة صارمة على الجهاز المصرفي الذي حطم أوروبا وأمريكا . . والتوجيهات مستمرة لتفادي أي أثر قد يلوح في الأفق . لقد انشغل العالم كله بتداعيات الأزمة ونسيت معظم الدول كل المشاكل أو تجنبتها حتى تتفرغ كل الجهود لمواجهة الخطر الماثل .

وقد أجمعت كل السياسات العالمية على أن العالم أصبح في حاجة ماسة إلى فترة من الاستقرار والهدوء وترسيخ الأمان . . حتى لا تتشتت الجهود وتتبدد المحاولات . . هذه الحقيقة علينا في البحرين أن ندركها بوعي . ففي ظل الاستقرار يتحقق الأمن . . وفي ظل الأمن تتحقق

التنمية . . وبسبب التنمية يتحقق الرفاه ويتحقق الرخاء الذي يأمله الجميع وينشده كل مواطن في أي مكان من العالم .

إن نظرة واحدة على ما حدث ويحدث في بعض دول أفريقيا درس يجب أن نفيد منه . إن هذه الدول تملك من الموارد ما يمكن أن يجعل من أبنائها أغنى مواطني العالم، ولكن هذه الدول بدل أن توجه أنظارها للاستفادة بما لديها من إمكانات، انقلبت تحارب بعضها بعضاً وسقطت فريسة للقبلية البغيضة التي أهدرت الدماء وقطعت الأوصال وكانت النتيجة أن تفرقت الجهود وضاعت الموارد وأصبحت الدول التي كان من الممكن أن تكون من أغنى دول العالم . . شعوباً من الجياع تعيش على التسول ممن يمتصون دماءها وينهبون ثرواتها . .

لقد قام المستعمرون منذ بداية عهد الاستعمار بابتكار سياسة "فرق تسد" كوسيلة فعالة لإحكام السيطرة على الشعوب المغلوبة . . هذه السياسة مازالت تمارس في كثير من المناطق ورغم إدراك الجميع أن هذه السياسة لا يمكن أن تحقق آمال الشعوب في التقدم والرخاء . إلا أن البعض مازال يجهل هذه الحقيقة . . ومازال يسمح لنفسه أن يعيش أسير سياسة وضعتها القوى الاستعمارية منذ عقود طويلة للسيطرة على الشعوب وبالتالي السيطرة على ما لديها من موارد لتصب في تحقيق الرخاء لشعوبها . هذه السياسة – وللأسف الشديد – مازالت تمارس في كثير من البلاد ورغم إدراك الجميع لخطورتها إلا أنهم لا يحاولون الفكاك من آثارها الخطيرة والالتفات إلى التوحد والترابط والتآخي والتعاون حتى يتحول الجميع إلى بناة للغد المشرق والمأمول .

هذه بعض الملامح مما يجري على الساحة العالمية . . ولكننا، وبحمد الله، أدركنا هذه الحقيقة . . وأدرك شعب البحرين بكل توجهاته أن اجتماع الكلمة هو سبيل التقدم . . وأن الوعي بما يدبره

أعداء الوطن من محاولة بث الفرقة وزعزعة الأمن إنما يسيء إلى كل إنسان عاش ويعيش على هذه الأرض الطيبة . . البحرين بلدنا . . والبحرين رغم مسحتها الصغيرة . . ورغم مواردها المحدودة . . دولة تتخذ مكانها وسط المنظومة الدولية المحترمة . . وهي بسياستها الحكيمة، وبتطورها المستمر، وببرامج التنمية التي فاقت كل المعدلات الدولية، أثبتت أن الأسرة الواحدة المترابطة والمتعاونة والمتآزرة هي الأسرة القادرة على البناء . . وهي الأسرة القادرة على التنمية . . وهي الأسرة القادرة على تحقيق الطموح المنشود لكل من يحيا على هذه الأرض وللأجيال القادمة جيلاً بعد جيل . إن أي إنسان يستهدف الأمن في هذا البلد لا يمكن أن يكون واعياً بآثاره . وقد واجهت البحرين طوال تاريخها الممتد الكثير من الأطماع وتعرضت للكثير من المحاولات . ولكن تماسك أبنائها, ووعي قيادتها, حمتها طوال القرون من كل ما استهدفه أعداؤها . . وصانتها وصانت أبناءها من كل الشرور التي أرادها لها الحاقدون .

لقد اجتازت سفينة الوطن بقيادة ربانها الحكيم كل ما مر بالعالم من أزمات، وكل ما أحاط بخليج الخير من مكر وأطماع . . واستطاعت سياسة هذا الربان المحنك الواعية والحكيمة أن تحقق للوطن ما لم يكن من الممكن أن يتحقق لولا هذا التلاحم, وهذا التعاون, وهذا التآزر, وهذا الإدراك الواعي لما يراد لها، ولما يراد بها، ولما يحققه الاستقرار والأمن من رخاء يعود بالفائدة والخير على الجميع .

والله ولي التوفيق

عبد الله بن خالد آل خليفة

سيوف لها قصص



السيف ليس مجرد قطعة من حديد . ولكن السيف قيمة وتاريخ . . وللسيوف في وجدان الشعوب السابقة أهمية بالغة . . فيه نظمت القصائد وتتابعت حوله الحكايات جيلاً بعد جيل . . وللسيوف في الوجدان العربي مكانة خاصة . . الأيدي التي تداولته . . المعارك التي شارك فيها . . القادة الذين حملوه . . كلها قصص تحكي صفحات هامة من التاريخ . في هذه السطور تقدم الوثيقة بعضاً من هذه السيوف .





تاريخ

بقلم : د. علي أباحسين

سيف النصف :

وهو سيف (النصف) جد الجلاهمة لأن (نصف الجلهمي) عرف بشجاعته وكان سيفه من حديد (الجوهر) ولونه أخضر يميل إلى السواد وفيه دالات أو مويات . وهو من الفولاذ الذي لا ينكسر لقوته . أما النوع الثاني من السيوف فتسمى (البياض) ولونه أبيض .

والجوهر نوعان : خريسان ودبان . والفرق بينهما أن خريسان هو الذي يميل إلى السواد . والدبان هو الذي موجاته ناعمة .



سيف السلموني :

هو سيف السيد سعيد بن سلطان إمام عمان وأهداه إلى الشيخ عبد الرحمن بن راشد الفاضل ابن أخت كل من الشيخ سلمان وعبد الله أبناء الشيخ أحمد (الفاتح) اللذان أقاما إقامة جبرية في (الدرعية) بعد أن دخل البحرين (ابن عفيصان) ثم لحق سليمان بن سيف بن طوق بهم في الزبارة فاستولى عليها وألزمهما مع عبد الله بن خليفة وهو ابن عمهما بالذهاب للدرعية مع السيد عبد الجليل وعبد الرحمن الزواوي ومحمد بن صقر المعاودة .

والمستغيث يعمر يوما كربته كالمستغيث من الرمضاء بالنار

فلما حصل لآل خليفة ما حصل استعانوا بابن أختهم (عبد الرحمن بن راشد الفاضل) فأظهر أنه متوجه للبحرين وركب سفينته (الجابري) ونزل مسقط وحاكمها (سيد سعيد بن سلطان) الذي اعتذر له من مساعدته بالجنود بل ساعده بالمال وأهداه السيف (السلموني) وهو من سيوف العرب المشهورة . وآل هذا السيف ليد سمو الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة فكانت بعدها اخكيكيره سنة ١٢٢٥هـ (١٨١٠م)[١] .

سيف نصر بن مذكور[٢] :

قال النبهاني : آل سيف الشيخ نصر آل مذكور إلى (آل ابن سلامة)، وهم عشيرة من (آل بنعلي) ثم آل ذلك السيف إلى الشيخ سلطان بن سلامة، ثم إلى ورثته إلى سنة ١٣٣٢هـ حيث أهدى ذلك السيف إلى حاكم قطر الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني .

وقال راشد بن فاضل البنعلي :

وقع سيف الشيخ (نصر بن مذكور) رئيس العجم بين (سلامة بن سيف البنعلي) مع سيوف أخرى . وما برح ذلك السيف يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن آل إلى يد (الشيخة مريم بنت سيف بن سلطان آل بنعلي) فوهبتني إياه وفي

وقت مسيري إلى الملك عبد العزيز في الرياض صحبته معي وأهديته مع هذه الأبيات إلى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل فقلت :

إن المآثـر تنبـي ذكـر صاحبهـا ... بما عليـه من الأفعـال مذكـور
لما أتى ناصـر المذكـور في مـلأ ... يقـود جيشاً من الأعجام مغرور
إلى الزبارة والعـُرب الذين بهـا ... من العتوب فـولى وهـو مكسور
حتى رمى بجميع السلب منهزما ... فصار تذكار هذا السيف (نصور)
يهـدي إلى ملك رأس الفضائل من ... قد كان بين ملوك الأرض مشهور
بالعلم والحلم والدين الحنيف ومن ... لواءه الحمى الإسـلام منشـور
(عبد العزيز) حمى الإسلام قاطبـة ... حقاً يقينا وليس الـحـق منكور
فاقبل هدية من قد حل سـاحتكم ... جهد العقل وقل لي أنت معـذور

وقلت أيضاً في المعنى من قصيدة بحق الشيخ (سلمان بن الشيخ حمد آل خليفة) فمنها أقول :

فسل عن بني ياس وسل أهل مسقط ... وسل قـوم نصـور وما هو طالبـه
لقد جر من أبنـاء فارس دولـة ... وجـاء بهم بـحـراً وأرسى مراكبـه
بمينا (الزبارة) بالجموع يقودها ... أحاط بهم براً وفي البحـر نائبـه
لكي يقتضي من أهل عقبة ثأره ... فشيت به نـار وزادت مصائبـه
وحاطت به الأبطال بالليل غرة ... وفرت جموع الفرس في البحر هاربة[٣]

سيف الروضة :

نسبة إلى وقعة (الروضة) صار هذا السيف بيد الشيخ خليفة بن محمد بن خليفةبن سلمان وهو في (وقعة المقطع) (١٢٣٠هـ/١٨١٥م) .

السيف الأجرب :

وهو سيف الأمير (تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود) المتوفى ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م . وقال الأمير (تركي بن عبد الله آل سعود) :

من يوم كل من عشيره تبـرّا   حـطيت (الاجــرب) لـي صـديق
نعم الرفيق اللي سعى ثم جرّا   يوقـع مناعـير النشـامى حيـارى

وفي قول :

من يوم كل من خويـه تبرّى   حطيت (الاجرب) لي خوي امباري

ثم انتقل هذا السيف إلى (الشيخ أحمد بن علي) ومنه إلى (الشيخ حمد بن عيسى) ومنه إلى (الشيخ سلمان بن حمد) ومنه إلى (الشيخ محمد بن سلمان بن حمد بن عيسى آل خليفة) . فلقد حدث خلاف بين أحفاده ومنهم الأمير (سعود بن فيصل بن تركي) الذي زار البحرين أكثر من مرة، ولم تطل إقامته فخرج إلى قطر حيث واجه مقاومة شديدة من معارضيه وهم من أتباع أخيه (عبد الله بن فيصل بن تركي)إلا أنه غادر قطر متوجهاً إلى البحرين ثانية ثم إلى عمان، ومن هناك كاتب (سعود بن فيصل) (الشيخ علي بن خليفة بن سلمان آل خليفة) الذي كان وقتئذٍ حاكماً على البحرين، كاتبه سعود يريد القدوم للبحرين فكتب له الشيخ علي قائلاً : "حياك الله . . وسأكون بصفك" . ولكن صادف أن قتل (الشيخ علي بن خليفة) سنة ١٢٨٦هـ . وخلفه الشيخ عيسى بن علي آل خليفة فكتب له الأمير سعود قائلاً : كان لي اتصال بوالدك . وإن عبد الله يرهبكم ويرغبكم . فأجابه الشيخ عيسى بن علي : إذا جئت للبحرين فسوف أحميك . فقدم الأمير سعود فاستقبله الشيخ عيسى بالإكرام وحماه، ولما طلب من الشيخ عيسى المساعدة أمده ببعض الرجال من البحرين وكتب له مع (العجمان) في العقير فانتصر الأمير سعود بمعارك على أتباع (عبد الله الفيصل) ودخل الأحساء وذلك سنة ١٢٨٧هـ . وحين قدم الأمير سعود بن فيصل للبحرين قدم سيف جده تركي وهو (السيف الأجرب) هدية إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة رمزاً للتعاون والوفاء إذ كانت البحرين في عهد الأمير

(سعود بن فيصل) مراكز للتشاور وتنسيق العمل مع شيخها في سبيل خطوات لاحقة استطاع بعدها الأمير (سعود) أن يتولى الحكم في بلاده لمدة خمس سنوات من ١٨٧١ إلى ١٨٧٦م .

أما (السيف الأجرب) فقد انتقل إلى الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة وقد اعتاد شيوخ البحرين أن يسلموا على جلالة الملك عبد العزيز حين زيارته للمنطقة الشرقية . وحين اتجه الشيخ حمد إلى الظهران استقبله جلالة الملك وكان الهدف من هذه الزيارة توجيه الدعوة لجلالته لزيارة البحرين فقبلها جلالته وتمت الزيارة في مايو ١٩٣٩م . وقدم الشيخ حمد السيف الأجرب إلى جلالة الملك عبد العزيز الذي قال : (هذه ذكرى منا عندكم فأبقوه لديكم) .

ولي تركي بن عبد الله آل سعود نجد بعد مقتل ابن عمه (مشاري بن سعود) من قبل الترك . وكان تركي شجاعاً دافع عن بلاده من ترك ومصريين واسترد الأحساء والقطيف وصالح أمير حائل . واغتاله ابن عمه (مشاري بن عبد الرحمن آل سعود) ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م وكان نتيجة ذلك استقرار حكم آل سعود[٤] .

الهوامش

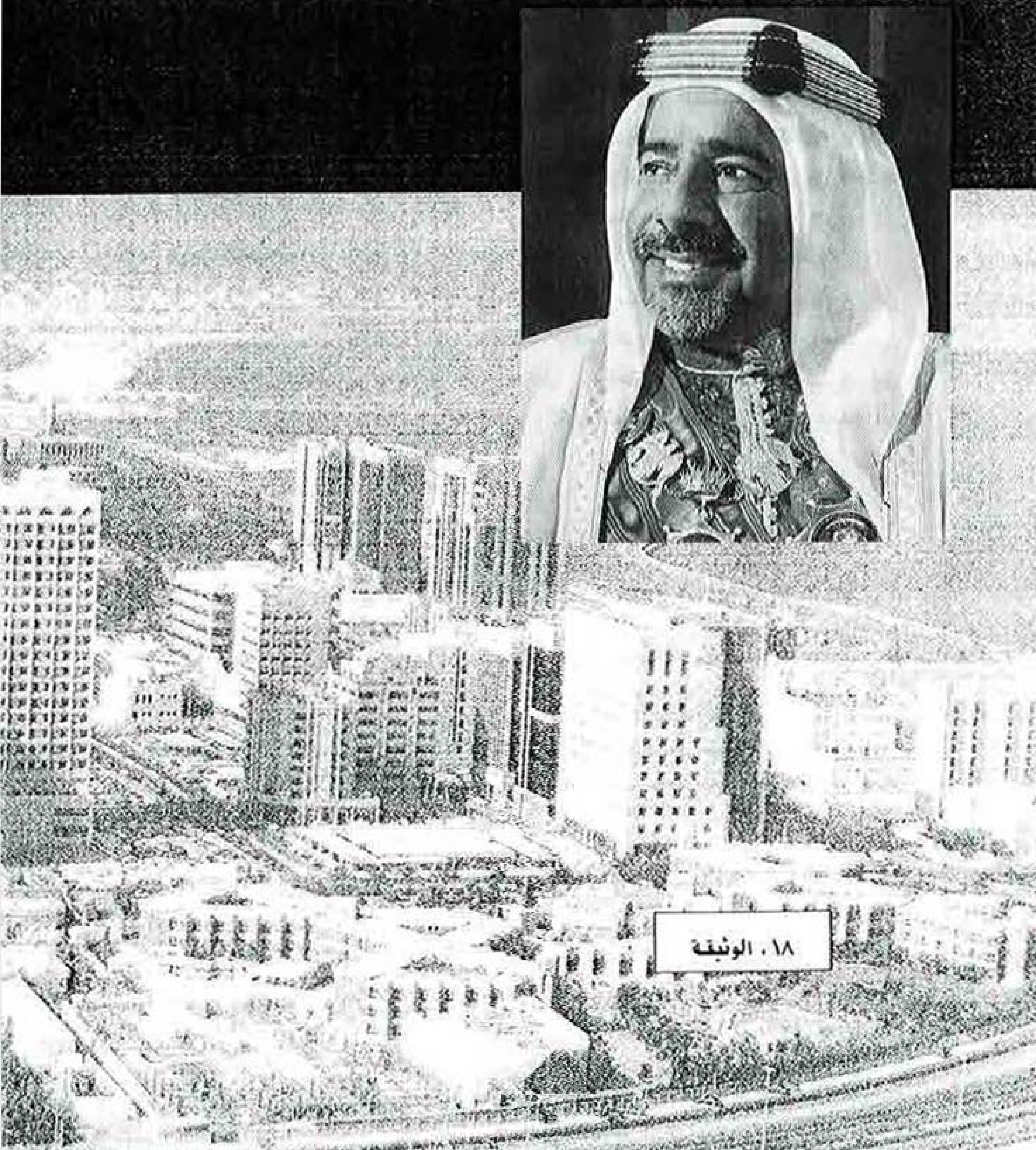
١ - النبهاني، التحفة النبهانية، ص١٢٢ .

٢ - النبهاني، التحفة النبهانية، ص١٢٦ .

٣ - الشيخ نصر بن مذكور من (النصور) قبيلة (مالك بن عون النصري) رئيس قبيلة (هوازن) في وقعة (حنين) والتاريخ يعيد نفسه و(بنو سليم) من (تميم) أبلوا بلاءً حسناً في تلك الغزوة مع النبي ﷺ والشيخ (نصر) عربي، لا كما يتوهمه بعض الناس أنه أعجمي، وانكسر نصر سنة ١١٩٧هـ/١٧٨٣م .

٤ - الزركلي، الأعلام ٢، ص٨٤ .

التحديث السياسي والاقتصادي



١٨ . الوثيقة

في البحرين "١٩٧١-١٩٨١"

بقلم : الدكتور عماد جاسم حسن





الوثيقة ١٩٠

تسعى العديد من دول العالم في ال تخطيط لبناء مؤسسات حديثة للنهوض بواقع حياتها وتقديم أفضل الخدمات لمواطنيها، ولذا أخذت أغلب الدول العربية تسير بسياسة الاقتباس من تجارب الدول المتقدمة التي تطورت في كثير من مجالات الحياة المختلفة، وأصبحت تسير بخطى سريعة في ذلك الاتجاه من أجل تحديث دولها .

تعد البحرين واحدة من الدول التي لجأت إلى اتباع سياسة تحديثية هدفت من خلالها تطوير البلاد بمجالاتها المختلفة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك الارتقاء بواقعها الصحي والتعليمي، بشكل فاقت فيه الكثير من دول المنطقة، وجاء ذلك الأمر ضمن خطط مدروسة وسياسة مرسومة سعت لتطبيقها وتنفيذها، الأمر الذي سيتضح من خلال هذا البحث الذي يتناول التحديث السياسي والاقتصادي في البحرين خلال المدة من ١٩٧١ — ١٩٨١م .

والواقع أن اختيار هذه المدة قد جاء بسبب أهميتها في تاريخ البحرين المعاصر لكونها أرست الأسس القوية والقواعد المتينة للدولة الحديثة في البحرين، إذ أن عام ١٩٧١ يعد عام استقلال البلاد وخروجها من الهيمنة البريطانية التي سيطرت عليها أكثر من قرن ونصف من الزمان، وبالتالي فإنها كانت مقيدة بسياسة تلك الدولة ولا تستطيع النهوض بواقعها إلا في حدود ضيقة جداً، ولكنها بعد الاستقلال أصبحت حرة في اتخاذ إجراءاتها والقيام بدراسات من أجل تنمية البلاد وتحديثها وفق الأنماط العالمية الحديثة . أما بالنسبة إلى توقف البحث في عام ١٩٨١م فهو نتيجة لانضمام البحرين إلى مجلس التعاون لدول الخليج العربي والذي تشكل في ذلك العام ودخولها في

منظومة دولية أصبحت تتخذ القرارات فيها بشكل جماعي ليس فيما يخص الجانب السياسي بل تعداه إلى المجالات الأخرى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والصحية.ويعد هذا الأمر بداية مرحلة جديدة في تاريخ البحرين المعاصر، ولهذا توقف عندها البحث .

تناول البحث السياسة التحديثية في المجال السياسي أولاً والتي تطرق من خلالها إلى ماحصل في البحرين من تطورات سياسية على الصعيد الداخلي والخارجي. كإقرار الدستور والتجربة البرلمانية التي بالرغم من قصر عمرها إلا أنها أثبتت اتباع البحرين لنمط جديد في الجانب السياسي بهدف بث الروح الديموقراطية في البلاد، ثم تناول البحث سياسة التحديث الاقتصادي التي اتخذت الحكومة البحرينية إجراءات متعددة هدفت من ورائها إلى استحداث قطاعات ومؤسسات اقتصادية واستثمارية وإيجاد معامل ومصانع بهدف التنوع بمصادر الدخل دون الاقتصار على مورد واحد .

مفهوم التحديث وبداياته في البحرين

التحديث في اتجاهه التاريخي يعني تتبع السيرورة الزمنية التي نتج عنها ظهور أشكال معينة في المجتمعات الحديثة، واكتسب مفهوم التحديث في إطاره العام بمعنى شبه ثابت، وهو دراسة العمليات التي تستهدف إحداث تغيرات مهمة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وذلك للخروج بالمجتمع والدولة إلى علاقات إنتاجية جديدة [١] .

والتحديث ظاهرة أوروبية خالصة انتشرت إلى معظم دول العالم، وأظهر القرن العشرون إمكانية كبيرة في استيعاب عمليات تحديث مختلفة على نطاق واسع[٢] . واختلفت النظريات والفلسفات في تفسير قضية التحديث ودوافعه،

إلا أنه شبه اتفاق بين مؤرخي التحديث يرى أن القرن العشرين قد استطاع نقل الإنسانية إلى عصر جديد وعلى نحو لم يسبق له مثيل منذ العقود الأولى من القرن العشرين. فكل المظاهر التحديثية هي وليدة القرن العشرين(٣) . ولهذا لامناص من قيام عمليات التحديث وظهور سياسات حكومية أو غير حكومية تدعو إليه في أي بلد من بلدان العالم ومهما كان مستوى التطور الحضاري فيه، وهكذا جاءت سياسة التحديث وفق سياق عام أخذ طابع الضرورة التاريخية إلى حد بعيد(٤) .

وفي ضوء ذلك، فإن عملية انفتاح المجتمع البحريني تعود إلى ظهور بداية التفاعل مع العالم الخارجي، ولاشك بأن تنامي هذه الظاهرة قد تطلب توفر شخصيات تضطلع بدور هام للانتقال بالدولة والمجتمع إلى حالة أكثر تطوراً في عملية جديدة ترمي إلى خلق ظروف ملائمة لتكوُن شكل الدولة الحديثة(٥) . وقد أسهم النفط من خلال الموارد المتأتية من تصديره في الإسراع بتلك العملية على نحو لا نظير له من قبل(٦) .

وتأسيساً على ذلك، فقد نتج عن اكتشاف النفط ظهور عمليات تحديث مختلفة في دول الخليج العربي ومن خلال مدة زمنية قصيرة نسبياً، فالتحول من القبيلة إلى الدولة نقل مجتمع الخليج العربي من حالة الركود إلى حالة الحركة والتغيير، فأحدث ذلك الوضع الانتقالي هزة اجتماعية ونتج عنها ردود أفعال مختلفة في قطاعات متعددة من المجتمع في الخليج العربي(٧) .

بدأ التحديث في البحرين وسط بيئة إقليمية سبق لها أن تعاملت معه منذ مدة طويلة، حيث ظهرت فيها الكثير من المحاولات الإصلاحية التي نتج عنها تطور في العديد من المجالات وخاصة في عهد الشيخ حمد بن عيسى بن علي (١٩٢٣ — ١٩٤٢) الذي أرسى دعائم المجتمع المتطور بإدخاله الإصلاحات في مجالات القضاء والإدارة والتعليم والغوص على اللؤلؤ والزراعة والصناعة والأشغال العامة(٨) . ففي مجال القضاء — مثلاً — نظم وفقاً للخطاب

الذي وجهه إلى ابنه الشيخ سلمان في ٢١ أغسطس ١٩٢٣ مؤكداً : "أن يكون الترتيب في بلدنا المنامة لإدارة شئون حكومتنا مع محافظتك على المواد الآتية وجريانك عليها ونقضي بين رعايانا، بمقتضى الحق والإنصاف . المادة الأولى هي القضية الشرعية تحال عند الشرع والمادة الثانية قضية العرف تحال عند العرف، والمادة الثالثة وهي مسائل الغواصين تحال عند عرف الغوص أي (السالفة)، أما المادة الرابعة في المسائل الجنائية يقبض على فاعلها إلى وقت المحكمة وتنفذ في كل من المواد المذكورة بمقتضى الحكم"(٩) .

ويتضح من ذلك أنه أعطى كل مختص سلطة في تخصصه دون حصرها في يد واحدة وهذا ما تحاول الدول الحديثة والأفكار والفلسفات التي تنادي بالحرية والديموقراطية والأفكار الدستورية تطبيقه، الأمر الذي يعبر عن بداية التحديث في البحرين .

وللتدليل على ما حصل في البحرين من أعمال تحديثية، يمكن الاستشهاد بما قاله جورج شامي الذي زار البحرين في الستينات من القرن العشرين حيث قال : "طوال يومين قابلت من خلالهما الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة وزير المالية، ثم الشيخ عيسى بن سلمان حاكم البحرين لمست الاستعدادات الطيبة التي تكمن في بُرد هؤلاء المسئولين الذين يحاولون بالقليل الذي يملكونه تحقيق ما يقارب المعجزات بالنسبة لبلادهم، يطمرون البحر ليتوسعوا، يشقون الطرقات ليتجروا، يشدون الأحزمة ليحسنوا أوضاعهم الاجتماعية، يفتحون بلادهم للتجارة الحرة ليكسبوا لها موارد قد تعينها في البناء، يرسلون أبناءهم في بعثات علمية إلى البلاد العربية وإلى أمريكا وأوروبا ليجاروا العلم والتطور"(١٠) .

وهكذا يتضح أن البحرين قد حصلت فيها إجراءات تحديثية مهمة في مجالات متعددة قبل استقلالها، وهنا لا يريد البحث الدخول في تفاصيل ذلك لأن موضوع البحث يبدأ من عام ١٩٧١ ولغرض التعرف على تلك السياسة

والتطورات التي حصلت من جرائها خلال المدة ١٩٧١ – ١٩٨١م، ينبغي تقسيمها إلى مجالات متعددة ودراسة كل مجال على حده لغرض الوقوف على ما حصل فيه من تطور ونقلة نوعية بالنسبة لدول حديثة الاستقلال والتكوين .

التحديث في المجال السياسي

يُعد الجانب السياسي الأساس في النظام التكويني لأي بلد، وإذا أرادت الدولة أن تجعل نفسها متطورة وفق النمط الحديث عليها أن تبدأ بالجانب السياسي، ليمتد بعد ذلك التطور إلى الجوانب الأخرى، ففي البحرين يلاحظ أنها شهدت سياسة تحديثية في ذلك الجانب قبل استقلالها، إذ حاولت البحرين العمل على إيجاد نظام إداري دقيق التنظيم، يكاد يشابه إلى حد بعيد تنظيمات الدول الحديثة التي سبقت الدول العربية في تطور مؤسساتها السياسية .

وفي ضوء ذلك، فقد صدر في البحرين في التاسع عشر من يناير ١٩٧٠ ثلاثة مراسيم خاصة بإعادة تنظيم الجهاز الإداري للدولة ليتماشى مع ما تتطلبه البلاد من تنظيم لغرض مسايرة التطور الذي حصل في الإمارة، وقد نص المرسوم الأول على إنشاء مجلس الدولة ليحل محل المجلس الإداري الذي تشكل في عام ١٩٥٦[١١] . وأنيط بالمجلس الجديد مزاولة اختصاصات السلطة التنفيذية، ويعد الجهاز الإداري الأعلى الذي يتولى إدارة شئون البلاد في مختلف المجالات الداخلية والخارجية، ويتألف ذلك المجلس من رئيس واثني عشر عضواً يتم تعيينهم من قبل الشيخ خليفة بن سلمان أول رئيس للمجلس[١٢] .

أما بالنسبة للمرسومين الثاني والثالث فقد تناولا تنظيم الدوائر الحكومية والتي حُددت بإحدى عشرة دائرة فقط هي (الدفاع، العلاقات الخارجية،

المالية والاقتصاد، الأمن العام، العدل، الخدمات، العلاقات الاجتماعية، البلدية والزراعة، المعلومات، والتربية، والصحة) . وتضمنت صلاحيات هذا المجلس تنظيم المسائل المالية والاقتصادية والثقافية والصحية، وتنفيذ الخطط الداخلية ورسم السياسة الخارجية للبلاد[١٣] . فضلاً عن ذلك، فإنه يعمل على توجيه وتنسيق عمل أقسام الحكومة والوكالات وإصدار القرارات ومتابعة تنفيذها وكذلك اقتراح مشروعات القوانين والمراسيم والأنظمة وإعداد الميزانية العامة للدولة. ويعمل هذا المجلس أيضاً على تهيئة خطط التطور الاقتصادي والاجتماعي[١٤] .

ويبدو أن هذا المجلس يختلف عن المجلس القديم اختلافا كبيراً نتيجة للصلاحيات الواسعة التي أعطيت له بالإضافة إلى تعدد دوائره، فضلاً عن ذلك فقد أصبح الجهاز الحكومي يشبه إلى حد كبير كثيراً من أنظمة الدول المتقدمة وأصبحت رئاسته ودوائره بيد المسئولين البحرينيين فقط ولم يعد للمستشارين البريطانيين رئاسة أي دائرة من دوائره[١٥] .

وبذلك يمكن القول، أن تشكيل مجلس الدولة في البحرين يعد الخطوة الأولى في التحديث السياسي والذي كان يتزامن مع تطور آخر حصل فيها نظمت أمورها بموجبه بشكل أفضل مما كان عليـه وهو حصولها على الاستقلال .

بعد إعلان البحرين استقلالها في ١٤ أغسطس ١٩٧١، صدر في اليوم التالي مرسوم أميري بشأن التنظيم الجديد للدولة تغير بموجبه اسمها من إمارة إلى دولة، وأصبح اللقب الرسمي لحاكمها أميراً بدلا من حاكم، كما تغير اسم مجلس الدولة إلى مجلس الوزراء وتسمية الدوائر الحكومية الإحدى عشرة باسم الوزارات وأصبح أعضاء المجلس الإداري يسمون وزراء حسب المرسـوم الأميري الجديد[١٦] .

ولعل الانفتاح على العالم الخارجي كان من أهم التطورات السياسية التي اتبعتها الحكومة البحرينية ضمن سياستها التحديثية، وذلك بإقامة علاقات سياسية، واقتصادية وثقافية مع أغلب بلدان العالم وفقاً لمبادئ سياستها الخارجية التي أعلن عنها بعد الاستقلال[١٧]. ولذا فإنها بادرت إلى الانضمام إلى جامعة الدول العربية في الحادي عشر من سبتمبر ١٩٧١م، والى منظمة الأمم المتحدة في ٢١ سبتمبر من العام نفسه[١٨]. كما استطاعت السياسة الخارجية البحرينية في ظل المتغيرات الإقليمية والدولية أن تحدد إطاراً عاماً لها من خلال اتجاهاتها التحديثية في هذا المجال وأبرزها[١٩]:

١ - ممارسة الدبلوماسية الجماعية أو دبلوماسية المؤتمرات والمنظمات الدولية.

٢ - تدعيم العلاقات بين البحرين والدول في العالم العربي والعالم.

٣ - الوقوف إلى جانب القضايا العربية في المجالات الدولية وبخاصة القضية الفلسطينية.

٤ - العمل على المحافظة على سلام وأمن واستقرار منطقة الخليج العربي.

٥ - العمل على تنسيق وتنظيم التعاون الاقتصادي والتجاري والفني والمهني مع دول المنطقة بما يضمن تطوير المنطقة اقتصادياً.

وتكشف التوجهات آنفة الذكر توسع دائرة الاهتمام الإقليمي والدولي للسياسة الخارجية للبحرين، إذ أصبح لديها تمثيل دبلوماسي وسفارات في العديد من البلاد العربية والأجنبية، وأصبحت تشارك في المؤتمرات والمنظمات الدولية وتطرح رأيها فيما يخص القضايا التي لا تهم البحرين والعرب فقط وإنما العالم.

ومن المظاهر الأخرى للسياسة التحديثية للبحرين أنها لم تعد غافلة عن حقوقها . إذ أنها أخذت تعمل على تنظيم علاقاتها مع دول العالم على أساس التكافؤ بين دولتين، وبعد الاستقلال مباشرة عملت على تنظيم علاقاتها مع بريطانيا الدولة التي كانت تدير شئون البحرين الخارجية قبل الاستقلال بل إنها صاحبة النفوذ فيها. فقد نظمت العلاقة معها من خلال اتفاقية وقعت بين الطرفين أنهت بموجبها الالتزامات البحرينية تجاه بريطانيا[٢٠] .

فضلاً عن ذلك. تنظيم علاقاتها مع الولايات المتحدة الأمريكية الدولة صاحبة النفوذ في منطقة الخليج العربي خاصة بعد الانسحاب البريطاني عام ١٩٧١. إذ عملت البحرين على تأجير قاعدة الجفير لها بموجب الاتفاقية التي وقعت بين الطرفين في ٢٣ نوفمبر ١٩٧١[٢١] .

ويبدو أن البحرين استفادت من تلك الخطوة بتوفير بعض الأموال التي تحتاجها البلاد في سياستها التحديثية، كما يمكن النظر إليها بأنها محاولة ترمي من خلالها إلى ضمان أمنها واستقرارها من التهديدات الخارجية خاصة وأنها دولة حديثة الاستقلال .

وفي المجال الداخلي، اهتمت الحكومة بتطوير العملية السياسية وفق النمط الحديث . وخلال الاحتفال بمناسبة العيد الوطني للبلاد، أعلن الشيخ عيسى بن سلمان بياناً في السادس عشر من ديسمبر ١٩٧١، أكد فيه على اتخاذ الخطوات الضرورية لوضع مشروع دستور حديث متطور لبلاده يكفل تطبيق المبادئ الديمقراطية السلمية، حيث قال : " إيماناً منا بضرورة وجود تنظيم سياسي للبحرين يحفظ لها كيانها وبقاءها كدولة حديثة متطورة، وحيث أن من ضرورات التنظيم السياسي للدولة هو وضع دستور حديث يحفظ لمجتمعنا وحدته وتماسكه ويوفر لأفراد شعبنا حرياته الأساسية من تعليم وعمل وضمان اجتماعي وصحي وإبداء الرأي والمساهمة في تسيير شئون بلاده في نطاق من الشرعية والدستورية"[٢٢] .

وتنفيذاً لهذا البيان، أعلن أمير البحرين في ٢٠ يناير ١٩٧٢م مرسوماً نص على إنشاء المجلس التأسيسي الخاص بإعداد الدستور، كما صدر مرسوم آخر بشأن أحكام الانتخاب للمجلس التأسيسي[٢٣] . والواقع أن الخطوة الأولى لتأسيس الحياة البرلمانية في البحرين أنجزت عندما انتخب البحرينيون مرشحيهم للمجلس التأسيسي في الأول من ديسمبر ١٩٧٢، وضم ذلك المجلس ٤٤ عضوا نصفهم بالاقتراع والباقون تم تعيين عشرة منهم والآخرون هم الوزراء وعددهم اثنا عشر ووزيرا، واشترك في تلك الانتخابات ما يقارب ثلاثين ألف ناخب، وأصبح إبراهيم العريِّض رئيساً للمجلس وعبد العزيز الشملان نائباً له . وفي يوم ١٦ ديسمبر افتتح الشيخ عيسى بن سلمان المجلس التأسيسي وسط تظاهرات شعبية مؤيدة لتلك الخطوة، وتم الاتفاق على أن تكون في الأسبوع جلستان الأولى يوم السبت والثانية يوم الثلاثاء[٢٤] .

ويبدو أن المهمة الأساسية للمجلس هي إعداد الدستور، وبعد اجتماعات متكررة دامت ستة أشهر تم إعداد مسودة الدستور التي نوقشت بشكل نهائي في ٢ يونيو ١٩٧٣، وتكونت من ١٠٨ مواد . وفي اليوم نفسه تسلم أمير البحرين أول دستور لبلاده معلقاً على ذلك بقوله : "يجب أن نجعل بلادنا دولة حديثة تساهم مع بلدان العالم الأخرى لما فيه مصلحة الإنسانية"[٢٥] .

وبذلك فقد صدر دستور دولة البحرين الحديث الذي أشار في ديباجته إلى "الرغبة في إرساء الحكم في البلاد على أسس قوية من الديمقراطية والعدل، وفي ظل نظام دستوري برلماني يوطد حكم الشورى، ويتفق مع ظروف البلاد وتراثها العربي الإسلامي"[٢٦] .

وقد نص الدستور على أن البحرين دولة عربية إسلامية مستقلة ذات سيادة تامة وشعبها من الأمة العربية وإقليمها جزء من الوطن العربي الكبير ولا يجوز التنازل عن سيادتها أو التخلي عن شيء من إقليمها، كما بين أن حكم البحرين وراثي ويكون انتقاله إلى الابن الأكبر، ونصت المادة الثانية أن دين

الدولة الرسمي هو الإسلام والشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع ولغتها الرسمية هي اللغة العربية[٢٧] . وأكدت المادة السادسة صيانة الدولة للتراث العربي الإسلامي ومساهمتها في ركب الحضارة الإنسانية وتحقيق آمال الأمة العربية في الوحدة والتقدم. وجاء في المادة التاسعة أن الملكية ورأس المال والعمل وفقاً لمبدأ العدالة الإسلامية مقومات أساسية لكيان الدولة الاجتماعي والثروة الوطنية وهي جميعها حقوق فردية ذات وظيفة اجتماعية ينظمها القانون. وأكدت المادة العاشرة على أن الاقتصاد الوطني أساس العدالة الاجتماعية وقوامه التعاون العادل بين النشاط العام والنشاط الخاص .

كما ضمن الدستور حرية الضمير المطلقة، وتكفل الدولة حرمة دور العبادة وحرية القيام بشعائر الأديان والمواكب والاجتماعات الدينية طبقاً للعادات المرعية في البلد، كما تضمن الدستور حرية الرأي والبحث العلمي وحق التعبير عن الرأي وحرية الصحافة والطباعة والمراسلات البريدية والبرقية والهاتفية وحرية تكوين الجمعيات والنقابات على أسس وطنية، ويقوم النظام الدستوري البحريني على أساس فصل السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية مع تعاونها وفقاً لأحكام الدستور[٢٨] .

وتنفيذاً لذلك، انبثقت أول عملية ديمقراطية في البحرين خلال عهدها الجديد. إذ جرت الانتخابات البرلمانية في السابع من ديسمبر ١٩٧٣م وشارك فيها ثمانون ألف ناخب لانتخاب ثلاثين عضواً للبرلمان، وكان عدد المرشحين ١١٤ مرشحاً . وجرت الانتخابات بشكل ناجح، وظهرت النتائج في اليوم التالي والتي أثبتت نجاحاً للمرشحين في مختلف شرائح المجتمع البحريني. وأصبح حسن الجشي رئيساً للمجلس وخليفة أحمد آل بن علي نائباً له وعبد الله المدني أميناً لسر المجلس[٢٩] . وقد أكد الجشي في كلمته التي ألقاها بعد انتخابه رئيساً للمجلس على "أن لا يفسح المجال للحساسية والبغضاء والكراهية

ونحن ننطلق من أقبية الماضي إلى رحاب المستقبل وليكن شعارنا أجمل الأيام هي التي لم نعشها بعد"[٣٠] .

وهكذا يلاحظ أن وجود المجلس الوطني البحريني قد أثبت عدم وجود الانقسام داخل المجتمع بل انصهاره في بوتقة وطنية واحدة خالية من كل أشكال العنصرية والطائفية التي حاول الكثير إيقاظها بين الحين والآخر .

وانسجاماً مع الأعراف الدستورية، استقالت الحكومة لتشكل حكومة جديدة في الخامس عشر من ديسمبر من العام نفسه، ضمت أربعة عشر وزيراً برئاسة الشيخ خليفة بن سلمان، وأصبح الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة وزيراً للدفاع وإبراهيم حميدان وزيراً للعمل والشئون الاجتماعية وجواد العريض وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء وحسين البحارنة وزير الدولة للشئون القانونية والشيخ خالد بن محمد آل خليفة وزيراً للعدل ومحمد العلوي وزيراً للاقتصاد والمالية والشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وزيراً للبلديات والزراعة وطارق عبد الرحمن المؤيد وزيراً للإعلام، فيما أصبح الشيخ عبد العزيز بن محمد آل خليفة وزيراً للتربية وعلي فخرو وزيراً للصحة والشيخ محمد بن مبارك آل خليفة وزيراً للخارجية ويوسف الشيراوي وزير التنمية والخدمات والشيخ محمد بن خليفة آل خليفة وزيراً للداخلية[٣١] . وفي السادس عشر من ديسمبر ١٩٧٣ . افتتح الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أول مجلس وطني للبلاد وأكد في كلمته التي ألقاها بتلك المناسبة "على رغبة بلاده في أن تكون عضواً في الأسرة الدولية وترسيخ علاقات الأخوة وتوثيق التعاون بينها وبين شقيقاتها العربيات انطلاقاً من وحدة الهدف ووحدة المصير"[٣٢] .

وبالرغم من ذلك فإن تلك التجربة الناجحة ما كان لها أن تستمر في ذلك الوقت إذ أدت مجموعة من الأسباب[٣٣] إلى إيقافها في عام ١٩٧٥ ريثما يتم التخلص من تلك الأسباب لتعود الحياة البرلمانية بشكل سليم إلى البحرين .

ويبدو أن السبب الرئيسي لتوقف البرلمان عن عمل هو الانقسامات التي حصلت داخله في الوقت الذي لم تكن البلاد في حاجة لمثل ذلك الانقسام خاصة وأنها دولة حديثة النشأة والاستقلال[٣٤] . وبالتالي فإن على الجميع الوقوف صفاً واحداً من أجل بناء الدولة الحديثة بعد الاستقلال، ولذا فضلت الحكومة أن تعيش مشاكل الشعب بشكل مباشر دون الحاجة إلى الوسيط الذي كان يمثله البرلمان .

ونتيجة لتلك التطورات استقالت الحكومة لتتشكل حكومة وحدة جديدة زاد فيها عدد الوزراء ليصبح ستة عشر وزيراً في الحكومة التي شكلها الشيخ خليفة بن سلمان في ٢٥ أغسطس ١٩٧٥ . وهدف التغيير الجديد كان تنسيق إدارة الشئون الاقتصادية ومعالجة مشكلات البحرين الرئيسية الخاصة بالإسكان والتضخم . والوزارتان الجديدتان هما الإسكان التي أسندت إلى الشيخ خالد بن عبد الله آل خليفة والثانية وزارة الأشغال العامة والكهرباء والتي أصبح ماجد الجشي وزيراً لها[٣٥] .

أما ما يخص المجال الخارجي، فيبدو أن دخول البحرين في عدد من المؤسسات الإقليمية والتي بعضها ضم دول الخليج يُعد مظهراً من مظاهر التحديث السياسي الذي أخذت به البحرين[٣٦] . وإن أبرز خطوة في هذا الاتجاه هي انضمامها لمجلس التعاون لدول الخليج العربي، وكان هذا الانضمام نتيجة حتمية لعمليات التحديث التي دأبت عليها دول الخليج العربي في تطور علاقاتها الخارجية . وبصرف النظر عن الأسباب التي أدت إلى تكوين ذلك المجلس، إلا أنه يمكن القول بأنه جاء لمعالجة مجموعة من المشكلات التي عانت منها منطقة الخليج العربي، وقد عبرت البحرين عن فرحتها بقيام هذا المجلس، إذ أشاد الشيخ عيسى بن سلمان بتلك الخطوة قائلاً : "لعل ما أنجز من خطوات على طريق التكامل والتنسيق الخليجي كان حصيلة لحتمية انبثاق مجلس التعاون لدول الخليج العربي بما يمثله من نقلة

حضارية كبيرة لها أبعادها المختلفة بين الدول المشاركة فيه والتي تربطها وشائج قوية وعلاقات وثيقة ماثلة على مر الأجيال. ويتوج تجربتها التكاملية الرائدة تعميقاً وتأصيلاً لتلك الروابط والارتقاء فيها إلى أسمى الغايات التي تحقق أماني شعوبنا وتضعها على عتبة تاريخ جديد من القوة والتقدم ليكون بمثابة التيار المتدفق من الماضي الذي يصب في الحاضر ويعمل للمستقبل ويمتد نبعه الفياض إلى وطنه العربي وأمته الإسلامية والبشرية بأسرها[٣٧] .

ويتضح من ذلك مدى اهتمام البحرين بالتقدم الحضاري للمنطقة والتأكيد على أهمية التجمع في مؤسسات إقليمية تستطيع النهوض ببلدان الخليج العربي ليس في المجال السياسي فحسب بل في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وهذا ما هدفت إليه البحرين في سياستها التحديثية وفق النمط الشمولي دون الاقتصار على مجال واحد .

التحديث في المجال الاقتصادي

عندما أعلنت البحرين استقلالها كانت في وضع متميز إلى حد ما عن أوضاع سائر الإمارات النفطية الأخرى. فاقتصادها أكثر توازناً نتيجة لعدم توفر النفط بالكميات المتوفرة في الكويت وقطر وأبوظبي لذلك (أي لفقرها النسبي للنفط)، اتجه المسئولون في السير بهدف تنويع الاقتصاد وذلك عن طريق جعل البحرين مركزاً للخدمات على نطاق منطقة الخليج العربي وبخاصة الخدمات التي تتعلق بصناعة النفط، انطلاقا من التقدم الذي أحرزته على جاراتها في مجال الخدمات المصرفية وفي مجال المواصلات والتعليم والتجارة[٣٨] . ويبدو أن قلة الإنتاج النفطي في البحرين لا تعني توقفها عن تصديره بل استمرارها في الإنتاج والتصدير ولكن في تناقص مستمر، والجدول الآتي يبين ذلك .

السنة	إنتاج النفط	السعر
١٩٧٣	٦٨,٠٠٠	٧٤,٠٠٠,٠٠٠
١٩٧٤	٦٧,٠٠٠	٢٦٢,٠٠٠,٠٠٠
١٩٧٥	٦٣,٠٠٠	٢٨٠,٠٠٠,٠٠٠
١٩٧٦	٥٨,٠٠٠	٣٩٥,٠٠٠,٠٠٠
١٩٧٧	٥٨,٠٠٠	٤٣٧,٠٠٠,٠٠٠
١٩٧٨	٥٥,٠٠٠	٤٩٥,٠٠٠,٠٠٠
١٩٧٩	٥٠,٠٠٠	٥٢٠,٠٠٠,٠٠٠

جدول رقم (١) إنتاج النفط وإيراداته في البحرين للأعوام ١٩٧٣ – ٧٩١٩[٣٩]

ويتضح من الجدول أن هناك تناقصاً في إنتاج النفط البحريني خلال السنوات ١٩٧٣ – ١٩٧٩، إلا أن إيراداتها كانت في تزايد وتصاعد مستمر ويعود السبب في ذلك إلى ارتفاع أسعار النفط العالمية نتيجة الطلب المستمر على النفط واتساع نشاط الصناعات والمؤسسات الصناعية في دول العالم المختلفة، وقد كانت لتلك الزيادات في الموارد أثراً واضحاً في تبني الحكومة البحرينية سياسة تحديثية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وبالرغم من قلة الإنتاج النفطي فيها إلا أن البحرين امتلكت أكبر المصافي النفطية في المنطقة آنذاك، إذ تساهم تلك المصافي في تصفية النفط القادم من المملكة العربية السعودية[٤٠] . كما عملت البحرين على تأسيس شركة نفط البحرين في عام ١٩٧٦ برأسمال قدره مائة مليون دينار وتكون الشركة مملوكة للدولة بالكامل ويكون لها حرية التصرف بجميع شئونها، وأن الهدف من

إنشاء هذه الشركة العمل بصناعة النفط في داخل البحرين وخارجها ويشمل ذلك البحث والتنقيب عن النفط والغاز الطبيعي وغيرهما من الموارد الهايدروكاربونية وكذلك إنتاج وتصفية وتنقية وتصنيع ونقل وتخزين المواد المذكورة وأي من منتجاتها المكررة والاتجار بتلك المواد ومنتجاتها ومستحضراتها وتسويقها وتوزيعها وبيعها وتصديرها ويكون مقر الشركة مدينة المنامة وتكون لها فروع ومكاتب وتسهيلات في داخل البلاد وخارجها(٤١) .

ونتيجة لتناقص الإنتاج النفطي فيها، ووفقاً لسياسة التحديث التي دأبت عليها البحرين. أخذت الحكومة بالتفكير منذ عام ١٩٨٠ بالتنقيب عن النفط دون الحاجة لاستئجار شركات أجنبية في المناطق المفتوحة(٤٢) وهي الأراضي المغمورة في الجهات الشرقية وتتمثل في فشت العظم. والشمالية وتشمل فشت الجارم (اليارم). والمنطقة الغربية البحرية التي تمتد إلى الحدود مع المملكة العربية السعودية. بالإضافة إلى الأراضي التي تقع خارج حدود حقل البحرين(٤٣).

ويتضح من ذلك أن البحرين بدأت تعمل من أجل تطوير قدراتها الذاتية بدلاً من الاعتماد على الخارج أو الدول الأجنبية والتي تهدر بسببها أموال ومبالغ طائلة لقاء عمل تلك الشركات وبالتالي فإنها عملت على توفير تلك الأموال للاستثمار الأمثل وفق السياسة التحديثية التي خططت لها وعملت على تنفيذها . ويبدو أن البحرين أخذت تسعى إلى تنظيم عملية استثمار الثروات الطبيعية وخاصة النفط، إذ صدر في الثالث من نوفمبر ١٩٨٠ مرسوم بإنشاء المجلس الأعلى للنفط الذي يهدف إلى وضع السياسة النفطية العامة بما يضمن المحافظة على الثروة النفطية في البلاد وإيجاد البدائل لها. وكذلك الإشراف على ما ينشأ من مؤسسات نفطية وتنمية الصناعات المرتبطة بالنفط بما يكفل ضمان الاستثمار الأفضل للثروة النفطية وتحقيق أكبر عائد منها(٤٤) ويختص المجلس بما يلي :

١ – إجراء الدراسات والأبحاث عن الوسائل التي تكفل إطالة عمر الاحتياطي من النفط والغاز الطبيعي وكافة مصادر الطاقة .

٢ – تطوير الأجهزة الفنية والبشرية في مجال الطاقة في البحرين .

والواقع أن سياسة التحديث الاقتصادي لم تقتصر على الاهتمام بالنفط بل إنها امتدت إلى جوانب اقتصادية أخرى. عندما أقدمت الحكومة البحرينية على استحداث مشاريع تهدف من ورائها إلى تنويع قاعدتها الاقتصادية. ومنها إنشاء مصهر الألمنيوم الذي يستخدم الغاز الطبيعي في تشغيل طاقته(٤٥) . فضلاً عن ذلك. فقد قامت صناعات مكملة لها منها كابلات الألمنيوم، سحب الألمنيوم وكذلك درفلة الألمنيوم أي تحويله إلى صفائح ورقائق تستخدم في الصناعات الأخرى. ويمكن الحصول عند البدء في تصنيعها على عائدات عالية نتيجة التصدير. كذلك القيام بإنشاء مشروع استخدام السوائل من الغاز المصاحب للنفط أثناء عملية الإنتاج، ولهذا المشروع فائدة اقتصادية أخرى، إذ أن الكميات المتبقية من هذا الغاز – بعد تصديره – تستغل في تسيير مشاريع توليد الطاقة الكهربائية(٤٦) .

وفي السياق ذاته. أخذت البحرين تعمل لإيجاد مصادر أخرى لدخلها بدلاً من الاعتماد على النفط. إذ بدأ التخطيط لإنجاز مشروع الحوض الجاف الذي اشتركت فيه إلى جانب البحرين كل من المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والإمارات والعراق وليبيا(٤٧) . ويُعد هذا المشروع الذي بدأ العمل به في العشرين من ديسمبر ١٩٧٤م واحداً من المشاريع الاقتصادية المهمة التي عملت على تطوير بعض جوانب الاقتصاد البحريني. ويهدف المشروع إلى إصلاح وبناء وتطوير صناعة السفن(٤٨)، وكذلك تدريب جيل من مواطني الدول الأعضاء في المشروع على سائر أعمال ومتطلبات صيانة وإصلاح الناقلات وصناعتها(٤٩) . وحُدد رأس مال المشروع بمائة مليون دولار ثم رفع إلى ثلاثمائة مليون دولار(٥٠) .

والواقع أن اختيار البحرين لإقامة هذا المشروع جاء لاعتبارات فنية واقتصادية تتعلق بملاءمة الأرض وقاع البحر والموقع القريب من منطقة مليئة بالناقلات بالإضافة إلى توافر مرافق الخدمات والمياه والمناطق السكنية(٥١) .

ومن الجدير بالذكر، أن الحكومة البحرينية تعاقدت مع شركة لزناف (Lezenaf) البرتغالية على تنفيذه وإدارته. وتعد هذه الشركة من كبريات شركات إصلاح وصيانة جميع أنواع السفن في العالم(٥٢) .

وفي ٣٠ نوفمبر ١٩٧٥م دشن أمير البحرين في مدينة الحد الحوض الجاف حيث أرسى الشيخ عيسى بن سلمان حجر الأساس للحوض(٥٣)، الذي ألحق به رصيفان يحتويان على أربعة مراس لإصلاح السفن وهي عائمة إضافة إلى وجود رصيف لتفريغ السلع والمواد القادمة إلى البحرين(٥٤) . كما أنه أخذ يستوعب ناقلات النفط التي تصل حمولتها إلى مليون طن(٥٥) .

وإلى جانب الاهتمام بالنفط اهتمت البحرين بالجانب الزراعي، إذ أكد وزير الزراعة حبيب قاسم على البدء بتنفيذ خطة أو سياسة زراعية اعتباراً من عام ١٩٧٦م تتضمن توفير المواد والسلع الغذائية التي يتعذر وصولها إلى البلاد، وكذلك زراعة الخضروات. والفواكه بصورة عامة لتوفيرها للمواطنين(٥٦) . وقد بدأ العمل بتنفيذ تلك السياسة وفق محورين، الأول تقديم الدعم والمساعدة للمزارعين كالأسمدة والبذور وآليات مكافحة الآفات الزراعية والإرشاد الزراعي بشكل مجاني أو بأسعار منخفضة. فضلاً عن ذلك المساعدة في إقامة جمعيات تعاونية إنتاجية زراعية . وتضمن المحور الثاني قيام الدولة بزراعة بعض القطع الزراعية بشكل مباشر وتحت إشرافها، بالإضافة إلى ذلك فقد قامت وزارة الزراعة بوضع دراسات لإقامة مشاريع اقتصادية تستطيع من خلالها سد احتياجات البلاد من المواد الغذائية، منها مشروع الدواجن الذي بلغت تكاليفه اثنا عشر مليون دينار في ثلاث سنوات(٥٧) .

وبذلك يمكن القول. أن البحرين أخذت تعمل باستخدام طرق ووسائل حديثة للنهوض بالجانب الاقتصادي الأمر الذي جعلها بحاجة إلى أموال كافية لتغطية نفقات تلك المشاريع التحديثية وهذا ما دفعها للاهتمام بجانب آخر يكون وموازياً ومصاحباً لتلك الجوانب وهو الجانب المالي والمصرفي . ويبدو أن تلك العملية بدأتها البحرين بدعم دورها كمركز مالي وتجاري في منطقة الخليج العربي بوصفها أول بلد خليجي أنشأ مصارف ومراكز مالية في المنطقة(٥٨) خاصة بعد إنشاء مؤسسة نقد البحرين عام ١٩٧٣ التي أصبحت الجهة المسئولة عن تحديد السياسة النقدية والمالية والإشراف على القطاع المصرفي في البلاد وعمليات التحويل الخارجي(٥٩) . يضاف إلى ذلك، تأسيس بنك الخليج الدولي عام ١٩٧٥م الذي اشتركت فيه دول الخليج العربي. ويقوم البنك بجميع الأعمال والخدمات المصرفية والتجارية لحساب البنوك الوطنية في تلك الدول أو لحساب الغير، أو بالاشتراك معها طبقاً للقوانين والأنظمة والإجراءات المصرفية المرعية في تلك الدول(٦٠) .

ونتيجة الاهتمام بالقطاع المصرفي، أصبحت البحرين تضم ثلاثة أنواع من البنوك والمصارف منذ عام ١٩٧٥م. الأولى تسمى البنوك التجارية ووصل عددها في عام ١٩٧٨ إلى ثمانية عشر مصرفاً وأهم نشاطاتها تقديم الخدمات المصرفية التقليدية كفتح الحسابات الجارية وأخذ ودائع المقيمين في البلاد وإقراض القطاعات الاقتصادية من أجل سد احتياجاتها للقيام بدورها في الاقتصاد المحلي. ومن هذه القطاعات (التجارة، الإنشاءات، الصناعة)(٦١) . والنوع الثاني هي المصارف المسماة بالوحدات المصرفية الخارجية وقد بلغ عددها حتى عام ١٩٧٨م خمس وثلاثون وحدة. وتقتصر واجباتها على عمليات الصيرفة العالمية وليس لها تأثير مباشر على الوضع المالي المحلي. أما بالنسبة للنوع الثالث فيسمى مكاتب التمثيل التي بلغ عددها ثمانية عشر مكتباً في عام ١٩٧٨

م. ومهمة هذا النوع هي إعطاء المعلومات الاقتصادية إلى المكاتب الرئيسية لهذه المصارف[٦٢].

وبذلك يمكن القول. أن هناك تنظيماً وترابطاً بين عمل تلك المؤسسات المصرفية والمالية، وكذلك ترابط بين نشاطاتها الداخلية والخارجية، وهذا ما يؤكد النهج التحديثي للسياسة الاقتصادية البحرينية خلال تلك المدة.

ويبدو أن الاهتمام المتزايد بالقطاع المصرفي دفع مجلس إدارة نقد البحرين في عام ١٩٧٨ إلى إصدار تراخيص باسم المصارف الاستثمارية. والهدف منها هو تنشيط وإدخال معلومات مصرفية عالمية في الأسواق المحلية ومنها ما يسمى بتداول الاستثمار في المنطقة[٦٣] ونتيجة الخطوات التي سارت عليها البحرين في الجانب الاقتصادي وبخاصة في مجال الاستثمارات أدى ذلك إلى أن يشيد صندوق النقد الدولي في عام ١٩٧٩ بسياسة البحرين الاقتصادية[٦٤]. ومما تجدر الإشارة إليه. أن بعض تلك المصارف والبيوتات المالية المحلية والأجنبية التي انتشرت في البحرين خلال عقد السبعينيات منها[٦٥]:

١ – بنك البحرين والكويت . ٢ – البنك العربي المحدود .

٣ – بنك القاهرة . ٤ – بنك الخليج المحلي .

٥ – بنك البحرين الوطني . ٦ – البنك البريطاني للشرق الأوسط .

وغيرها من البنوك الأخرى التي بفضل وجودها أصبحت البحرين مركزاً للتجارة والاتصالات والأعمال المالية التي لجأت إليها العديد من الدول والمؤسسات للاستثمار فيها[٦٦].

ومن أجل مواكبة الأنظمة الاقتصادية العالمية، والأخذ بخطوات وأساليب التطور الذي تحقق فيها. فقد نجحت البحرين في تطبيق وتنفيذ الكثير من تلك الأنظمة منها التخطيط في عمليات الإنفاق والاستثمار التي يتم احتسابها من خلال ميزانية الدولة والتي أصبحت تضم جميع المجالات بشكل ينسجم مع

برامج التنمية الاقتصادية والعمرانية التي شهدتها البلاد، وكذلك الاهتمام بالمرافق الحيوية. لذا يلاحظ أن هناك تصاعداً مستمراً في ميزانية الدولة، فبعد أن كانت عام ١٩٧١ تقدر بـ ٢٤ مليون دينار أصبحت في عام ١٩٧٢ حوالي ٢٦ مليون دينار ليزداد ذلك إلى ٣٢,٥ مليون دينار خلال عام ١٩٧٣، أما في عام ١٩٧٤ فقد أصبح ٨٨ مليون دينار ثم ارتفع ذلك المبلغ في عام ١٩٧٥ إلى ١٣٧ مليون دينار ثم في ١٩٧٧ وصل إلى ١٩١ مليون دينار[67] وهو في تزايد وتصاعد مستمر.

وإلى جانب الاهتمام بتنظيم ميزانية الدولة لجأت البحرين إلى اتباع الأنظمة الحديثة في القياس وذلك بالتحول من نظام المقاييس إلى النظام المتري، وبعد أن كانت تستخدم الرطل (يساوي ٦ أونس) والربعة (تساوي ٤ أرطال) والمن (يساوي ١٤ ربعة) والربعة تعادل (٢كيلو جرام). استخدمت الأوزان المترية في المعاملات التجارية تماشياً مع متطلبات التنمية الاقتصادية والتي تعد واحدة من مظاهر التحديث في دول العالم وليست البحرين فحسب. إذ أصبح العالم يستخدم وحدة قياس موحدة، وبذلك أصبح النظام المتري هو الأساس الذي يعتمد عليه النظام الدولي للوزن والقياس واعتمد النظام الجديد على الكيلو جرام في الوزن وعلى المتر في قياس الأطوال وعلى اللتر في قياس الحجم كما أن البحرين تحولت إلى العملة العشرية والتي وحدتها (الفلس، والخمسة فلوس، العشرة فلوس، المائة فلس، والألف فلس) بعد أن كانت تعتمد سابقاً الروبية الهندية التي لا يوجد ترابط بين فئاتها، فمثلاً الروبية تساوي ١٦ أنة والتي تساوي ٦٤ بيزة والأنة ٤ بيزات[68]. وبالتالي فإنها غير صحيحة وغير عادلة في التعامل المالي.

فضلاً عن ذلك، فإن ثمة إجراءات اتخذت كان لها ارتباط وثيق بسياسة التحديث الاقتصادي يأتي في مقدمتها إصدار قانون بحرنة الوظائف في عام ١٩٧٩، والذي جاء نتيجة شعور الحكومة البحرينية بالمخاطر الناشئة عن

استخدام العمالة الأجنبية. فحاولت معالجة ذلك الوضع من خلال القوانين والتشريعات التي تحد من العمالة الوافدة الأجنبية[٦٩]. واتخذت الخطوات اللازمة لذلك الموضوع عندما قررت شركة نفط البحرين المحدودة (بابكو) إتاحة الفرصة للخريجين من المدارس الثانوية والكليات للعمل بها. وفي خطوة أولى أوفدت الشركة مبعوثاً للاجتماع بالطلبة البحرينيين الذين يدرسون في جامعة البترول والمعادن السعودية، وقد تباحثت معهم حول أنظمة العمل والعوائد والامتيازات التي يحصل عليها الخريج المؤهل لدى الشركة. وكان لذلك الأمر أثر واضح في استجابة الطلبة[٧٠].

والواقع أن الاهتمام بالقوى العاملة لكونها عصب التنمية وعقلها والقوة المحركة لها والدافعة إليها ثم المستفيدة من إنجازاتها[٧١]. ولهذا فقد أخذت البحرين بالاهتمام في وضع برامج التنمية من حيث تقدير احتياجات المشاريع الاقتصادية من الأفراد ذوي المهارات والتخصصات في مدة زمنية واختيار أفضل السبل لتوفير تلك الاحتياجات[٧٢]. فالتنمية هي وسيلة لرفع مستوى المعيشة لأبناء الشعب في ذلك البلد الذي ينشد التنمية والتحديث وضمان الرفاهية لهم. أي أنها تعني التحسن الجوهري في مستوى معيشة السكان وبناء اقتصاد قادر على إشباع حاجات المجتمع المتزايدة إلى أقصى حد ممكن من الإشباع وإقامة هيكل اقتصادي يوفر لكل مواطن ازدهار شخصيته وتفتح قدراته[٧٣].

بالإضافة إلى ذلك، الاهتمام بالتدريب المهني وتفريع التعليم الثانوي والتطور في مناهج التربية والتعليم بما يفيد الجانب الاقتصادي. كذلك فإن قانون العمل البحريني الذي صدر عام ١٩٧٦ كانت له انعكاسات إيجابية اقتصادية واجتماعية. وقد أعطى ذلك القانون الأفضلية في التشغيل للعامل البحريني أولاً ثم العربي ثم الأجنبي[٧٤]. ويبدو أن تشريع قانون العمل في البحرين يعد علامة بارزة في التشريع العمالي في منطقة الخليج العربي، وقد

اهتم القانون بالعامل وظروف العمل التي يعمل بها وصحته. وهذا الأمر يحصل لأول مرة في البحرين. كما أن القانون ألزم صاحب العمل بتوفير الرعاية الصحية للعاملين. كما اهتم أيضاً بالعمال العجزة وكيفية تشغيلهم، وتنظيم عملية تشغيل النساء والأحداث مراعاة لصحتهم(٧٥) .

وفي السياق ذاته. أعدت الحكومة البحرينية خطة خمسية لتدريب العمال البحرينيين ورفع كفاءتهم الفنية. واشترك في تلك المشروعات ثلاثة أطراف هي الحكومة وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، وهيئة العمل الدولية. وتنفيذاً لهذه السياسة أجريت ثلاث دورات لهذا الغرض في عام ١٩٧٦(٧٦) . كما تم إنشاء ما يسمى بالمجلس الأعلى للخدمات العمالية في عام ١٩٧٩م، والذي اختص برسم السياسة العامة للخدمات الاجتماعية على المستوى الوطني واقتراح المشروعات الاجتماعية العمالية المركزية ووسائل تمويلها. كذلك دراسة مشروعات الخدمات العمالية في نشأة القطاع الأهلي والعمل على تطويره على مستوى المنشأة وفي فروع النشاط الاقتصادي المختلفة. وإجراء البحوث والدراسات والإحصائيات الخاصة بذلك(٧٧) .

ويتضح مما سبق. أن البحرين حاولت الربط بين الجوانب الاقتصادية والجوانب الاجتماعية وهذا شأن السياسة التحديثية أو الأنماط العالمية التي لا تفصل بين مجالات الحياة بل تضعها في صف واحد وتحاول من خلال الإجراءات التي تتخذها أن توفق وتربط بينها في سبيل تطوير البلاد واقتباس الأفكار الحديثة .

الخاتمة :

(١) اتضح من خلال البحث أن محاولات الإصلاح والتحديث في البحرين لها جذور تاريخية، إذ أنها تمتد إلى بدايات القرن العشرين، وقد تجسدت تلك المحاولات بمجموعة من الإجراءات التحديثية في المجالات المختلفة ويمكن عد ذلك التطور بداية لما حصل في البحرين من تحديث بعد عام ١٩٧١ .

(٢) تبين من خلال الدراسة أن التحديث السياسي قد بدأ في عام ١٩٧٠، لكنه لم يكن بالقدر الذي حصل بعد الاستقلال، وقد تميز التحديث في عام ١٩٧١ بكونه شاملا لكل مجالات الحياة السياسية التي كانت ترتكز على قاعدة أساسية في كل دولة تنشد التحديث والتطور، وذلك من خلال إقرار دستور دقيق ينظم حياتها. وينظم اختصاصات جميع السلطات .

(٣) توصلت الدراسة إلى أن التحديث السياسي لم يقتصر على الجانب الداخلي فقط بل تعداه ليعالج شئون السياسة الخارجية وجعلها مواكبة لأسس العلاقات الدولية التي تنظم علاقاتها مع دول العالم الأخرى من خلال السياسة الخارجية التي أعلنت عنها وجعلتها أساساً للانطلاق نحو الخارج بما يحقق مصالحها السياسية والاقتصادية ويضمن استقلالها وسيادتها ويعبر عن طموحات شعبها في القضايا التي تخص الأمة العربية والعالم أجمع .

(٤) أظهر البحث نجاح الحكومة البحرينية في خطواتها الرامية إلى عدم الاعتماد على مصدر اقتصادي واحد بل اتساع دائرة الاقتصاد ليشمل قطاعات متعددة تستطيع جلب الموارد المالية اللازمة لإحياء وبناء المشاريع

الخدمية والحيوية وكذلك المشاريع الاستراتيجية الكبرى التي اشتركت في بعضها مع دول الخليج العربي .

(٥) أثبتت الدراسة تميز السياسة الاقتصادية التحديثية بمعالجة جوانب عدة. ارتكزت أساساً على الجانب المالي وتشجيع الاستثمارات المصرفية واستقطاب المصارف العالمية وتشجيعها على افتتاح فروع لها في البحرين في خطوة تميزت بها على دول المنطقة التي افتقرت لمثل تلك المراكز المالية والتي جعلت من البحرين مركزاً مالياً وتجارياً مهماً في منطقة الخليج العربي الأمر الذي يعد نجاحاً مميزاً لسياسة التحديث الاقتصادي التي اتبعت فيها .

د. عماد جاسم حسن

جامعة ذي قار - كلية التربية

قسم التاريخ — العراق

الهوامش والمصادر

١ — رضا بوكراع. خصائص التحديث في المجتمعات النفطية والنظرية والاجتماعية في الإنسان والمجتمع في الخليج العربي. بحوث الندوة العلمية العالمية الثالثة لمركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة. الكتاب الأول. ص٣٥٠-٣٥٢ كذلك أنظر :

William R. Polk and Richard L. Chambers. Beginning of Modernization in the Middle East, the 9th Century. The university of Chicago press, 1968, PP. 2-5

٢ — هربرت فيشر. أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية. ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى. دار المعارف. القاهرة. ١٩٦٢. ص٢٩ -٥٥ .

٣ - Robert K. Merton, Social theory and Social structure . New York . the free press . 1968 . PP: 30.

٤ — رياض جاسم الأسدي. سياسة التحديث في عمان ١٩٧٠-١٩٨١. دراسة تاريخية. أطروحة دكتوراة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب جامعة البصرة. ٢٠٠١. ص١٣٩ .

٥ — محمد جواد رضا. المخاض الطويل من القبيلة إلى الدولة. مجلة المستقبل العربي. العدد ١٥٤. ص٢٦ .

٦ — صلاح العقاد. معالم التغيير في دول الخليج العربي. معهد البحوث والدراسات العربية. ١٩٧٢ . ص٤٣ .

٧ — محمد غانم الرميحي. الخليج ليس نفطاً/ دراسة في إشكالية التنمية والوحدة. الكويت. شركة كاظمة. ١٩٨٣. ص٢٧-٢٨ .

٨ — مؤيد عاصي سلمان. السياسة البريطانية في البحرين ١٩١٩-١٩٣٣. رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب. جامعة البصرة. ١٩٩٧. ص٧٨ .

٩ — د.علي أباحسين. مقتطفات من تاريخ الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة (١). مجلة الوثيقة. مركز الوثائق التاريخية. البحرين. العدد ٤٣. ٢٠٠٣. ص١٢٠ .

١٠ — قدري قلعجي. الخليج العربي بحر الأساطير. بيروت. ط ٢. ١٩٩٢. ص١٥٧ .

١١ — إبراهيم خلف العبيدي. الحركة الوطنية في البحرين ١٩١٤-١٩٧١. مطبعة الأندلس. بغداد ١٩٧٦. ص١٠٣ .

١٢ - عادل الطباطبائي. السلطة التشريعية في دول الخليج العربي - نشأتها. تطورها. العوامل المؤثرة فيها. الكويت ١٩٧٥. ص١١٥ .

١٣ - Mohammad. T. Sadik and William Sanvely. Bahrain. Qatar. and the United Arab Emarat. Colonial past. present problems and future prospects. London. PP.129-130.

١٤ - سجل العالم العربي. وثائق - أحداث - آراء سياسية. بيروت. دار الأبحاث والنشر. ١٩٧٠ . ص٩٦ .

١٥ - إبراهيم خلف العبيدي. المصدر السابق. ص١١٩ .

١٦ - محمد جاسم محمد. النظم السياسية والدستورية في منطقة الخليج والجزيرة العربية. منشورات مركز دراسات الخليج العربي. جامعة البصرة. شعبة الدراسات السياسية والاستراتيجية. السلسلة الخاصة (٧٧). ١٩٨٤. ص١٥٧ .

١٧ - أمل إبراهيم الزياني. البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي. ١٩٧٧. ص٥٧ .

١٨ - محمد جاسم محمد. المصدر السابق. ص١٥٧ .

١٩ - أمل إبراهيم الزياني. المصدر السابق. ص٥٧ .

٢٠ - محمد حسن العيدروس. العلاقات العربية الإيرانية ١٩٢١-١٩٧١. منشورات دار السلاسل. الكويت ١٩٥٨. ص٤٠٨ .

٢١ - Arthars. Banks and other Editors. Political. Hand book of the word. 1975. PP. 24 .

٢٢ - علي أباحسين. مسيرة الخير والعطاء في البحرين. المنامة. المؤسسة العربية للطباعة والنشر. ١٩٩٣. ص٥٤ .

٢٣ - محمد جاسم محمد. المصدر السابق. ص١٦٥ .

٢٤ - سجل العالم العربي لعام ١٩٧٢. ص٢٩٨٢ .

٢٥ - سجل العالم العربي لعام ١٩٧٣. ص٧٠٨ .

٢٦ - محمد جاسم محمد. المصدر السابق. ص١٦١ .

٢٧ - Keely. J.B.. Arabia. the Gulf and the west. PP. 184 .

٢٨ - محمد علي الداود. الخليج العربي والعمل العربي المشترك. منشورات مركز دراسات الخليج العربي. جامعة البصرة. ١٩٨٠. ص١٦٥-١٦٦ .

٢٩ - سجل العالم العربي لعام ١٩٧٣. ص١٥٣٣ .

٣٠ - المصدر نفسه. ص١٥٣٤ .

٣١ - المصدر نفسه. ص١٥٣٥ .

٣٢ - المصدر نفسه. ص١٥٣٤ .

٣٣ - لا يود الباحث الخوض في تفاصيل تلك الأسباب لكونها خارج نطاق البحث .

٣٤ – جمال زكريا قاسم. تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، المجلد الخامس. دول الخليج العربي في مرحلة ما بعد الاستقلال والانسحاب البريطاني إلى غزو الكويت ١٩٧١ – ١٩٩١، دار الفكر العربي. ٢٠٠١، ص٢٩٥ .

٣٥ – سجل العالم العربي لعام ١٩٧٥، ص١٥٤٦ .

٣٦ - للتعرف بشكل مفصل على تلك المؤسسات ينظر عماد جاسم حسن. العلاقات البحرينية الخليجية ١٩٧١-١٩٨١ دراسة تاريخية. أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية التربية. جامعة البصرة ٢٠٠٩ .

٣٧ – مركز زايد للتنسيق والمتابعة. صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة ومسيرة بناء البحرين. أبوظبي. ٢٠٠١، ص٣٤ .

٣٨ – نجيب عيسى. نموذج التنمية في الخليج والتكامل الاقتصادي العربي. معهد الإنماء العربي. الدراسات الاقتصادية. لبنان. ص٨٠ .

٣٩ – الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على محمد عبد ناجي. مستقبل التعاون الاقتصادي الخليجي في مجال الملاحة والنقل البحري. الكويت. ص٤١٤ .

٤٠ – محمد علي الداود. المصدر السابق. ص١٦٩ .

٤١ – البحرين اليوم. العدد ٣٥٤ في ٣ مارس ١٩٧٦، ص٧٠٦ .

٤٢ – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٨٠، ص٥٠٢ .

٤٣ – الأضواء. البحرين. العدد ٧٣٥ في ١ مارس ١٩٨٠ .

٤٤ – الجريدة الرسمية. البحرين. العدد ١٤٠٨ في ٦ أكتوبر ١٩٨٠ .

٤٥ – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٩٠، ص٦٠٤ .

٤٦ – صدى الأسبوع. البحرين. العدد ٧٤٣ في ١١ سبتمبر ١٩٧٩ .

٤٧ – Keely, J.B., Arabia, the Gulf and the West, PP. 181

٤٨ – محمد هاشم خواجكية. التكامل الاقتصادي في الخليج العربي. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. الكويت. ١٩٧٨، ص٢٦٢ .

٤٩ – سلمى عدنان محمد. أقطار الخليج العربي – حقائق وأرقام. الكتاب السنوي الثاني. مركز دراسات الخليج العربي. ص٣٧٤ .

٥٠ – محمد هاشم خواجكية. المصدر السابق. ص٢٦٢ .

٥١ – سلمى عدنان محمد. المصدر السابق. ص٣٧٦ .

٥٢ – المصدر نفسه. ص٣٧٧ .

٥٣ – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. العدد ٢. ١٩٧٥. اليوميات. ص٢٤٨ .

٥٤ – سلمى عدنان محمد. أقطار الخليج العربي. حقائق وأرقام. الكتاب السنوي الأول ١٩٧٨. ص ١٦٥ .

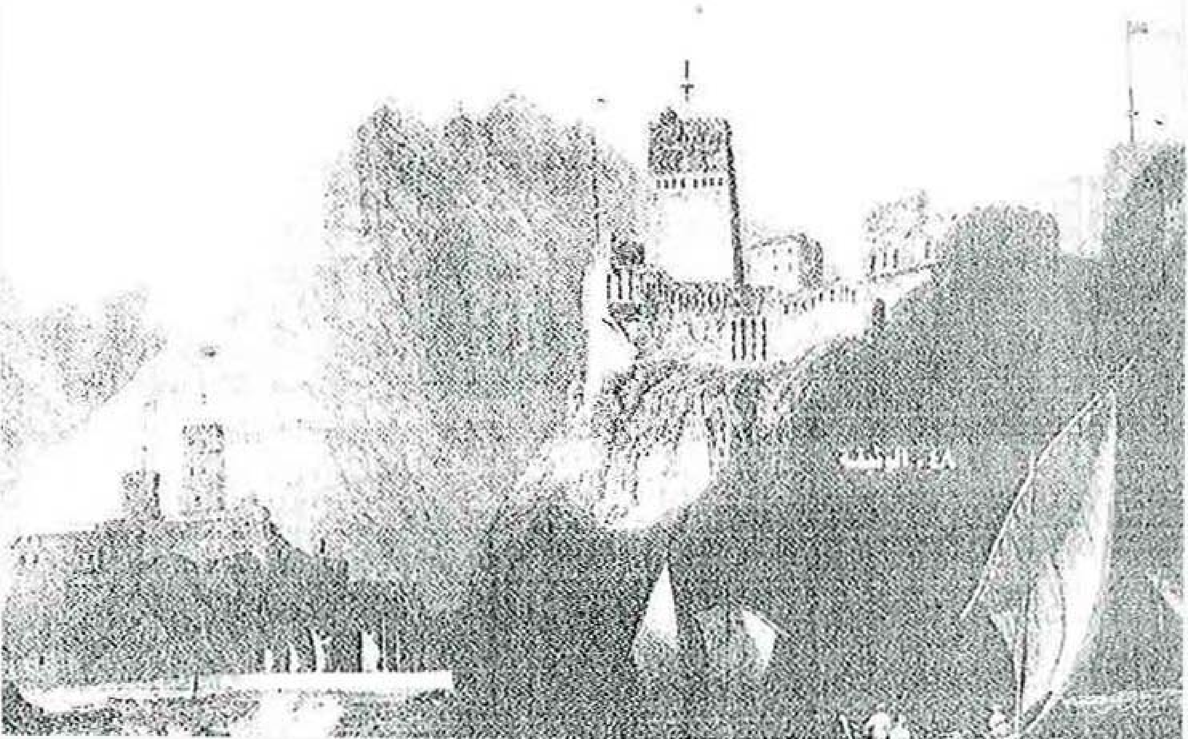
٥٥ – سلمى عدنان محمد. الكتاب السنوي الثاني. ص٣٧٧ .

٥٦ – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٦، ص٢٧٩ .
٥٧ – مجلة المواقف. البحرين. العدد ١٣٤ في ١٤ يونيو ١٩٧٦. ص٤ .
٥٨ – أحمد عبد القادر مخلص. مجلس التعاون لدول الخليج العربي. دراسة سياسية. منشورات مركز دراسات الخليج العربي. جامعة البصرة. ١٩٨٦. ص٢٧ .
٥٩ – سجل العالم العربي لعام ١٩٧٣، ص٧١٨ .
٦٠ – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٥. ص٥٠٦ .
٦١ – مركز البحوث والمعلومات. تقرير رقم ٢٧، ١٩٧٩، ص١٣ .
٦٢ – مجلة الحوادث. بيروت. العدد ١١١٦ في ٢٤ مارس ١٩٧٨ .
٦٣ – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٨. ص٤٤٧ .
٦٤ – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. العدد ٢٠. الوثائق: ص١٩٥ .
٦٥ - Mustafa Jundia. Editor. Assistant Editor. Kathrine MCM. enemy Banks of the Arab World. PP. 10.
٦٦ - Indar Jit Rikhye. Gulf security Quest for regional cooperation. A report of the International peace academy report No. 22. New York. 1985. PP. 12.
٦٧ – مجلة المواقف. البحرين العدد١١٧ في ١٦ فبراير ١٩٧٦. كذلك البحرين اليوم. العدد ٣٩٧ في ١٩٧٧. ص٤ .
٦٨ – البحرين اليوم. العدد ٤٠٠ في ٩ فبراير ١٩٧٧. ص١٤ .
٦٩ – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٩. ص٦٣١ .
٧٠ – مجلة المواقف. العدد ١٢٩، في ١٠ مايو ١٩٧٦. ص١١ .
٧١ – أحمد فؤاد نجيب. تنمية الموارد البشرية. التخطيط والسياسات والأجهزة. مركز البحوث الإدارية. القاهرة. ١٩٧٢، ص١٢ .
٧٢ – شارل بتلهيم. التخطيط والتنمية. ترجمة إسماعيل صبري. دار المعارف. القاهرة. ص٧٠ .
٧٣ – صبري فارس الهيتي. الخليج العربي. دراسة في الجغرافية السياسية. دار الرشيد للنشر. ١٩٨١. ص٢١٩ .
٧٤ – مجلة المواقف. العدد ٢٠٦ في ٣١ كانون الأول ١٩٧٩ .
٧٥ – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٦، ص ٢٩٦ .
٧٦ – البحرين اليوم. العدد ٣٦٤ في ١٢ مايو ١٩٧٦. ص١٩ .
٧٧ – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٩، ص٦١٨ .

الأسطول والقوة

خلال النصف الأول

بقلم : الدكتور فاضل محمد الحسيني

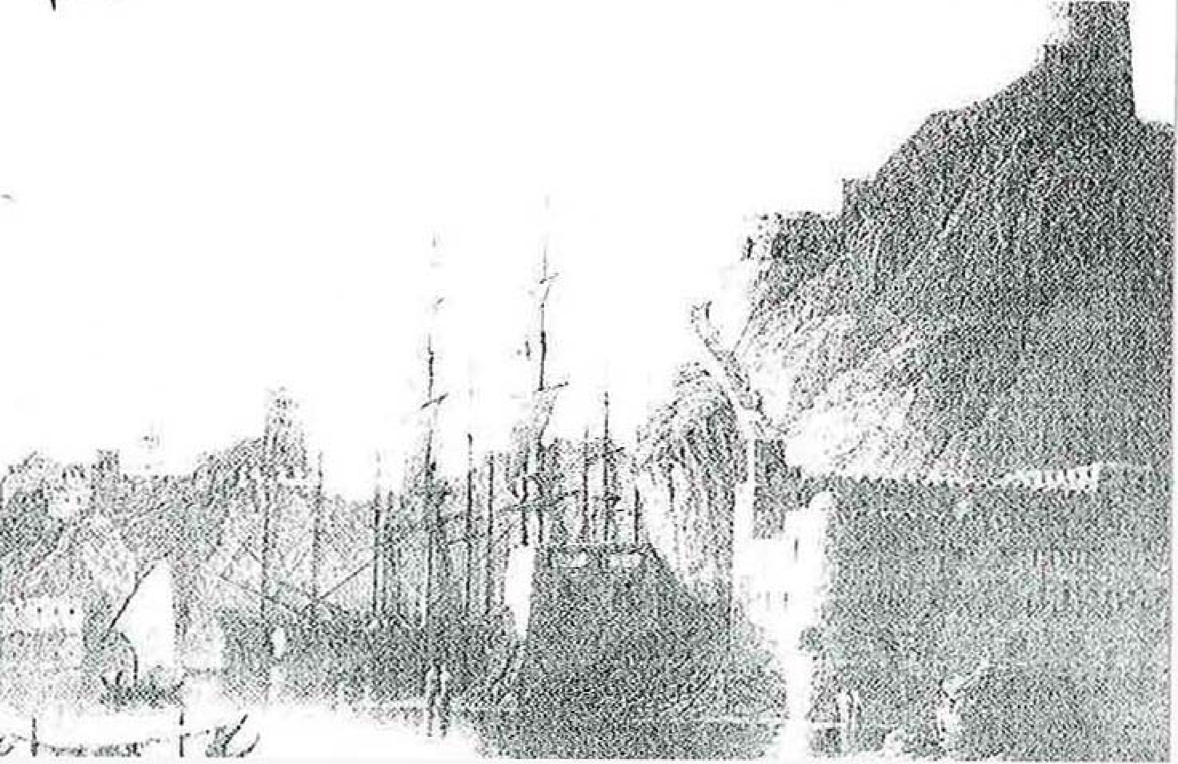


البحرية في عمان

من القرن التاسع عشر

بلغت القوة البحرية العمانية أقصاها إبان عهد السلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٤-١٨٥٦م)، إذ كان الأسطول العماني الحربي والتجاري خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر يعد ثاني أكبر أسطول على الإطلاق في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي . فهو يأتي بالمرتبة الثانية بعد الأسطول البريطاني .

إن التطور الكبير الذي طرأ على الأسطول والقوة البحرية العمانية خلال هذه الفترة يعود إلى أسباب شتى أهمها حرص واهتمام السلطان سعيد شخصياً ببناء الأسطول البحري العملاق لعمان، إذ أمر ببناء العديد من السفن الحربية في أحواض السفن في الهند[1] .



كما أن منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي في عهد السلطان سعيد كانت تشهد حالات من التنافر والصراع والحرب والقرصنة ساهمت في خلقها القوى المحلية والدولية الأمر الذي حمل السلطان سعيد على تشكيل أسطول كبير وقوة بحرية مرهوبة الجانب في عموم المنطقة فضلاً عن حمايته التجارة العمانية والعلاقات التجارية لعمان[٢]. زائداً التطلع والطموح الكبير للسلطان سعيد في فتح بعض المناطق وضمها لدولته عمان مثلما حدث مع شرق أفريقيا ومناطق أخري. إذ كان السلطان سعيد كثير التطلع والطموح خارج عمان. حيث امتد طموحه للسيطرة على مناطق شاسعة تبدأ من الخليج العربي وجنوب إيران وبلوشستان إلى الساحل الشرقي لأفريقيا ومدغشقر. وكل هذا يتطلب منه إعداد أسطول قوي وقوة بحرية متقدمة[٣].

كما لا يفوتنا في هذا الصدد الأسباب النفسية والعوامل المعنوية التي كانت تدفع بالسلطان سعيد إلى بناء أسطوله وقوته البحرية حيث اشتهر بأنه "السيد البحّـــار". إذ كان السلطان سعيد كثير السفر في البحر حيث يقطع مسافات طويلة وهو على متن السفينة. وكان يشعر بالغبطة والسعادة عندما يقود بنفسه سفينته الخاصة (شاد علم)[٤]. وكان يملك شخصياً عشرين سفينة يستخدمها في تجارته الخاصة الأمر الذي دفعه شخصياً إلى الاهتمام بالأسطول والقوة البحرية خلال تسلمه الحكم في عمان.

الواقع. أن عمان لم تهتم بأسطولها وقوتها البحرية إبان عهد السلطان سعيد فحسب. وإنما كانت منذ القدم وعبر مراحلها التاريخية تعير الاهتمام الفائق إلى القوة البحرية لحماسة أسطولها التجاري. إذ كان الأسطول التجاري والحربي العماني من أكثر الأساطيل قوة وعدداً لقرون عديدة في غرب المحيط الهندي[٥]. لكي يستطيع حماية التجارة والعلاقات التجارية العمانية كما يستطيع أن يقوم بالدفاع عن سيادة عمان في الداخل ومجابهة أعدائها في الخارج. إذ لعب الدور ذاته خلال العصور الإسلامية المختلفة وحتى العصر

الحديث الذي تلقى فيه الأسطول العماني ضربة قوية من قبل الأسطول البرتغالي في خور جراما عام ١٥٠٧م مما أدى إلى إغراقه، لكن العمانيين لم يستسلموا لهذه الضربة القوية فقد نهضوا من جديد وتصدوا للهجمة البرتغالية الشرسة منذ عام ١٦٢٤م وتمكنوا من مهاجمة الأسطول البرتغالي في مسقط بعد أن تلافوا نقاط الضعف في أسطولهم وضاعفوا من أعداد قطع الأسطول وحجم السفن. وعندما استلمت الأسرة اليعربية مقاليد الحكم في عمان عقب انهيار الأسرة النبهانية، أدرك الحكام الجدد لعمان بأن قوة عمان ومنعتها تكمن في قوتها الحربية البحرية، وعلى ضوء ذلك سعى الإمام سيف بن سلطان اليعربي إلى إعداد أسطول بحري قوي تمكن به من التصدي للأسطول البرتغالي، وبذلك بدأت مرحلة جديدة من تاريخ البحرية العمانية عقب تحرير العاصمة مسقط. كما بدأت مرحلة جديدة من النفوذ العماني في الخليج العربي امتدت لفترة قرنين من الزمن تقريباً.

وكان هناك حافز آخر للسلطان سعيد في بناء أسطوله وقوته البحرية، إذ أن الإرث التاريخي الكبير لدولته عمان في ميدان الأسطول والقوة البحرية لا يجعله يتقاعس عن بذل قصارى الجهد في سبيل استعادة مجد الأسطول العماني الحربي والتجاري بل على العكس كان يدفعه للتميز في هذا المضمار عن العهود التي سبقته، وهذا ما حدث بالفعل إذ لم يأل السلطان سعيد جهداً في بناء ترسانته البحرية العسكرية والتي حقق بواسطتها حلمه الكبير في التربع على عرش دولة كبيرة وقوية نعتها المؤرخون بالإمبراطورية لكونها كانت مترامية الأطراف ومن أبرز مقوماتها الاقتصاد المتين والقوة البحرية الرادعة.

بعد أن أوضحنا في المقدمة السالفة الأسباب والمبررات التي دفعت بالسلطان سعيد إلى بناء الأسطول العماني والقوة البحرية، سنحاول فيما يلي إلقاء الضوء على تشكيلات ومهام الأسطول والقوة البحرية العمانية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر من خلال المحورين التاليين :

أولاً : تشكيلات الأسطول والقوة البحرية

قبل التطرق إلى تشكيلات الأسطول العُماني والقوة البحرية العمانية في عهد السلطان سعيد، حرى بنا أن نتناول نبذة مختصرة عن تاريخ الأسطول والقوة البحرية العُمانية منذ القدم ولغاية مطلع القرن التاسع عشر للميلاد .

تفيد المصادر والوثائق التاريخية القديمة بأن عمان كان لها باع طويل في ميدان الأسطول والقوة البحرية، إذ أن تشكيلات الأسطول العماني قد بلغت أكثر من ثلاثمائة سفينة للعمليات الحربية أيم الإمام المهنا بن جيفر اليحمدي الخروصي (٨٣٩ – ٨٤١م)[٦]، كما بلغ عدد سفن الأسطول العماني أيام الإمام الصلت بن مالك الخروصي (٨٥٧ – ٨٨١م)، أكثر من ثلاثمائة بارجة حربية مسلحةعندما هاجم الأحباش جزيرة "سقطري" التي كانت تابعة لعمان[٧] . وقد استمر الأسطول العماني بالتفوق والقوة حتى ظهور السفن الأوروبية في المياه العربية فبدأ التحدي الكبير والخطير لأول مرة. وقد تمثل أول تحدٍ أوربي بحري بظهور الأسطول البرتغالي المتفوق من حيث العدة والتسايح في عهد الإمام محمد بن إسماعيل عام ١٥٠٠م، وقد تمكن الأسطول البرتغالي بقيادة إفونسو البوكيرك إحالة المنطقة الممتدة ما بين رأس الحد ورأس مسندم إلى حطام[٨] .

لقد تعرض العمانيون إلى ضربة قوية من قبل الأسطول البرتغالي إلا أنهم لم يستسلموا بل تمكنوا من التصدي والمقاومة حتى تحقيق النصر وطرد البرتغاليين من عموم منطقـــة الخليج العربي، كما أشرنا إلى ذلك في مقدمة البحث .

ولكن الذي يهمنا في هذا الصدد هو أن العمانيين قد تعلموا دروساً بليغة من تحدي البرتغاليين لهم، منها مواجهة العدو وتحمل الاندحار مرة وتحقيق الانتصار عليه مرات عدة . هذا من جانب، ومن جانب آخر إعادة النظر في تشكيلات أسطولهم الحربي وفي صناعة السفن من أجل رفع كفاءة وقدرة الأسطول العماني الذي تمكنوا به - فيما بعد — من مواجهة الأعداء بكل اقتدار. ومع مجيء اليعاربة إلى سدة الحكم في عمان عقب انهيار حكم الأسرة النبهانية، بذل الحكام اليعاربة قصارى الجهود من أجل إعداد أسطول بحري وقوة بحرية كبيرة تتمكن من التصدي للأساطيل المعادية في المنطقة. فأقدم العمانيون إبان عهد اليعاربة على التخلي عن التشكيلات القديمة لأسطولهم واستبدلوا بها تشكيلات حديثة، إذ أصبح الأسطول العماني يتشكل من سفن حربية حديثة مزودة بعدد كبير من المدافع. كما استخدموا في أسطولهم السفن الحربية كبيرة الحجم ذات الطراز الأوروبي المزودة بالمدافع الحديثة وقد تم بناء أغلبها في الهند(٩)، ومن الجدير بالذكر أن القوة البحرية العمانية قد استطاعت في تطور لاحق أن تهزم الهولنديين الذين قدموا للمنطقة عقب البرتغاليين فألحقوا بهم خسائر فادحة، كما انتهز العمانيون فرصة انشغال الأوروبيين وصراعهم فيما بينهم من أجل توطيد النفوذ في الهند، فأقدموا على توطيد مراكزهم في شواطئ أفريقيا الشرقية وجزر المحيط الهندي وإقامة علاقات تجارية واسعة مع أغلب دول المنطقة .

لقد تمكنت القوة البحرية العمانية مطلع القرن الثامن عشر من أن تنجز أعظم أسطول بحري لدولة غير أوروبية في المحيط الهندي وأن تمتد سيطرتها على طول الشاطئ الأفريقي حيث بسط الأسطول العماني سيطرته على سواحل مقديشيو وممباسا وزنجبار وبمبا والخليج العربي وبحر العرب ومشارف وادي الإندوس وسواحل الهند الغربية(١٠) .

الواقع. إننا وبالرغم من إشارة الوثائق إلى ضخامة الأسطول العماني أوائل القرن الثامن عشر[١١]. وقوته العسكرية ومكانته في المنطقة وبسط سيطرته على مناطق شاسعة في المحيط الهندي والخليج العربي، إلا أننا لا نستطيع أن نعرف بشكل دقيق تعداد سفنه. وفي هذا الصدد يقول مايلز: "على الرغم من ضخامة الأسطول العماني إلا أننا لا نعرف تعداد سفنه وكل ما نعرفه أن قسماً منه قد بني على الطراز الأوروبي والآخر على الطراز الشرقي، ولكن الذي لا جدال فيه أن تسليحه كان ممتازاً"[١٢].

أما تشكيلات الأسطول والقوة البحرية في عهد دولة البوسعيد التي أعقبت دولة اليعاربة حيث تولى مؤسسها أحمد بن سعيد الحكم في عمان عام ١٧٤٩م، فقد تطور الأسطول العماني كثيراً في عهد أحمد بن سعيد وقد استخدمه في نجدة أهالي البصرة ومطاردة القراصنة على سواحل مالابار وقد تحول الأسطول والقوة البحرية في عهده إلى قوة يحسب حسابها في المحيط الهندي.

أما الأسطول والقوة البحرية العمانية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وبالتحديد أيام السلطان سعيد الذي هو صلب موضوع بحثنا فقد تطور الأسطول العماني والقوة البحرية العمانية في عهده كثيراً حيث بلغت قوة عمان البحرية أقصاها وذلك لأسباب وعوامل ذكرناها في مقدمة البحث.

لقد أولى السلطان سعيد اهتماماً فائقاً ببناء الأسطول الحربي فكانت موانئ عمان خلال عهده مثل مسقط ومطرح وصور وشناص تشمل أهم أحواض بناء السفن من الأخشاب المستوردة من الهند فضلاً عن الأخشاب العمانية، وقد أمر السلطان سعيد شخصياً ببناء العديد من السفن الحربية في أحواض بناء السفن الهندية وخاصة بومباي. ولعل من أبرز أنواع سفن الأسطول العماني والقوة البحرية إبان عهد السلطان سعيد هي كالآتي[١٣]:-

١ – **شاه علم** : هي عبارة عن فرقاطة فيها ستة وخمسون مدفعاً وحمولتها تبلغ ألفاً ومائة وأحد عشر طناً .

٢ – **كارولين** : وهي عبارة عن فرقاطة تحمل على متنها أربعين مدفعاً وتبلغ حمولتها خمسمائة وخمسة وسبعين طناً .

٣ – **تاج بكس** : عبارة عن مركب تبلغ حمولته حوالي سبعمائة وسعة وثلاثين طناً .

٤ – **ليفربول** : وهي عبارة عن بارجة تحمل أربعة وسبعين مدفعاً تزن حمولتها ألفاً وسبعمائة وخمسة عشر طناً .

٥ – **سلطانة** : وهي سفينة تحمل أربعة عشر مدفعاً وتبلغ حمولتها ثلاثمائة واثني عشر طناً وتعد من أهم القطع الحربية العمانية لدى السلطان سعيد .

٦ – **تاجـــه** : وهو عبارة عن مركب يحمل اثني عشر مدفعاً وحمولته تبلغ ألفين وخمسة وعشرين طناً .

٧ – **نوسري** : عبارة عن مركب تبلغ حمولته مائة وتسعة وسبعين طناً .

٨ – **البغلـــة** : أكثر أنواع المراكب استعمالاً في عمان والخليج وكانت تبلغ حمولتها ما بين مائة وخمسين وأربعمائة طن .

٩ – **السنبوق** : هو من أكثر المراكب العمانية عراقة وتتراوح حمولته بين عشرين إلى مائة وخمسين طناً .

١٠ – **الجلبوت** : وهو مركب متأثر بالتصميم الأوروبي فهو يشبه السفينة الأوروبية المسماة (جولي–بوت)، ويذكر أن اسمه مشتق من اسم المركب البرتغالي (جالبوتا)، وتبلغ حمولتـــه ما بين أربعين وخمسة وسبعين طناً .

١١ – **البـــدن** : أكثر السفن العمانية شهرة ولازالت تستخدم للآن .

١٢ – **البتيل** : مركب مزود بالمدافع وقد تصل حمولته إلى مائتي طن .

١٣ – **الزيما** : من السفن الساحلية الكبيرة، وهو يشبه البتيل إلى حد ما .

١٤ – **الداو** : وهو من أكبر السفن العمانية .

١٥ – **الغراب** : وهو من أقدم السفن الحربية العمانية وقد ورد ذكره على لسان العديد من الكتاب الأوروبيين ولونه أسود يشبه الغراب وتجمع أغربة أو غربان .

الواقع، هناك العديد من السفن الصغيرة التي كان يضمها الأسطول العماني أيام السلطان سعيد ولكننا اكتفينا بذكر ما تقدم لأهميتها وعراقتها ودورها الكبير في رفد القوة البحرية العمانية وتقدمها .

لقد كان الأسطول العماني أيام السلطان سعيد عملاقاً وقوياً. وقد احتل الدرجة الثانية في المنطقة بعد الأسطول البريطاني، إذ كانت له قواعده الرئيسية على الساحل الشرقي للخليج العربي في موانئ بندر عباس وجاسك وشامل وسيات وكنجة وجزر قشم وهرمز ولاراك، أما قواعده على الساحل العماني فهي مسقط ومطرح وجزيرة مصيرة . أما على الساحل الأفريقي فقواعده كانت ممباسا ولامو وكلوة ومركة ومقديشيو وزنجبار، وقد أفادت المصادر التاريخية بأن السلطان سعيد كان يقضي فترة طويلة على ظهر السفن من أجل أن يتفقد المناطق الشاسعة من دولته عمان .

إننا لم نتمكن من الحصول على صورة دقيقة ومفصلة في المصادر التي اطلعنا عليها للأسطول العماني والقوة البحرية في عهد السلطان سعيد حيث أن المصادر والوثائق التاريخية لا تتفق على تشكيلة واحدة وثابتة للأسطول العماني يومئذٍ، بيد أن أحد التجار الأمريكيين الذي زار زنجبار مطلع الثلاثينيات من القرن التاسع عشر قدم لنا صورة عن تشكيلات الأسطول العماني أيام السلطان

سعيد خلال زيارته. حيث ذكر بأن السلطان كان يملك أسطولاً وقوة بحرية تتألف مما يلي :-

١ — سفينة مزودة بـ ٦٤ مدفعاً .

٢ — ثلاث فرقاطات مزودة كل منها بـ ٣٦ مدفعاً .

٣ — سفينتان كل منهما مزودة بـ ١٤ مدفعاً .

٤ — مائة مركب تقل ستة آلاف مقاتل .

كما ذكر لنا المفاوض الأمريكي (روبرتس) في تقريره بأن عمان في عهد السلطان سعيد كانت تملك أكبر أسطول تملكه جميع الدول الآسيوية والأفريقية الواقعة على سواحل المحيط الهندي(١٤). وقد أفاد لنا "جيان" كذلك بقوله بأن قوة السلطان سعيد قد بلغت درجة كبيرة من الخطورة إذ أن قوة عمان البحرية في عهده كانت تتشكل من ٣٧ سفينة حربية وقوته العسكرية بلغت ٢٥٠ ألف جندي منهم ٥٠ ألفاً من جنود الأسطول(١٥) .

وتذكر بعض المصادر أن الكابتن (هارث) قد وضع كشفاً مفصلاً عام ١٨٣٤ م بأعداد السفن للأسطول العماني أيام السلطان سعيد موضحاً أنواعها كذلك. ولكننا للأسف لم نعثر عليه بل أشار إليه رودولف سعيد في كتابه "سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان" ذاكراً بأن الكشف كان يذكر بارجة حربية واحدة وثلاث فرقاطات وسفينة حربية إضافة إلى عشرين سفينة تجارية عائدة للسلطان. علاوة على عدد من البغلات البحرية والمراكب التي تحمل كل منها بين الأربعة والعشرة مدافع(١٦) .

وقبل التطرق إلى مصادر قطع الأسطول العماني والقوة البحرية يجدر بنا الإشارة إلى كيفية صناعة السفن التي يتضمنها الأسطول العماني . لقد كانت السفن العمانية تصنع حسب الطرق التقليدية قبل مجيء السفن الأوروبية إلى منطقة الخليج العربي والذي كان تفوقها واضحاً للعيان من حيث التسلح

وعلى العموم فإن هدفنا من هذه المقدمة الموجزة مطلع هذا المحور هو أن نؤكد ما نرمي إليه في هذا البحث. ألا وهو الأسطول الحربي ذو المهام العسكرية. وسنرى ذلك واضحاً في الفقرة التالية عند تطرنا لمهام الأسطول وواجباته .

لقد حمل الأسطول والقوة البحرية العمانية في عهد السلطان سعيد على عاتقه تحقيق المهام الأساسية الآتية :-

١ - التصدي بحزم لأساطيل الدول المعادية لعمان في عموم منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي. خاصة وقد تزامن عهد السلطان سعيد مع الصراع البريطاني الفرنسي بالمنطقة. وهذا يعني أن الأسطول والقوة البحرية كانت تستخدم لحماية البلاد من الغزاة والمحتلين[٢٠] .

٢ - التصدي بقوة لحالات التنافر والصراع التي شهدتها منطقة الخليج العربي أيام السلطان سعيد، إذ دخلت عمان في صراع مع القوى المحلية كالوهابيين والقواسم[٢١] .

٣ - التصدي لأعمال القرصنة التي نشطت في عهد السلطان سعيد في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي والتي شاركت فيها قوى دولية ومحلية، الأمر الذي أدى إلى توقف الرحلات التجارية أحياناً وعدم استتباب الأمن والاستقرار في عموم المنطقة ومنها المياه الإقليمية العمانية. وقد تعرضت سفينة السلطان سعيد الشخصية (كارولين) إلى الهجوم من قبل هؤلاء القراصنة، ومن المفيد الإشارة في هذا الصدد أن السلطان سعيد كان يقود بنفسه الأسطول العماني من أجل التصدي لأعمال القرصنة، وقد أصيب بجرح خلال إحدى عمليات التصدي لهم[٢٢] .

٤ – ومن بين مهام الأسطول والقوة البحرية وواجباتها أيام السلطان سعيد استخدامه للقضاء على حالات التمرد التي تحدث ضمن دولة عمان سواء في الجزء الآسيوي أو الجزء الأفريقي، كما حدث ذلك عندما تمرد حمود بن عزان على السلطان سعيد معلناً انتزاع ساحل الباطنة منه وجعله تحت قيادته[٢٣]. ونفس الأمر حدث في الجزء الأفريقي من عمان وبالتحديد في جزيرة زنجبار وممباسا فأقدم السلطان سعيد على استخدام أسطوله والقوة البحرية من أجل قمع المتمردين وعودة المنطقتين تحت سيطرته[٢٤].

٥ – تلبية طموحات السلطان سعيد في الفتح والتوسع وإضافة مناطق جديدة لدولته عمان كانت أيضاً من مهام الأسطول والقوة البحرية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولعل أوضح دليل على ذلك هو إقدام السلطان سعيد على ضم أجزاء كبرى من شرق أفريقيا إلى دولته عمان[٢٥]، كما حاول السلطان سعيد بواسطة أسطوله وقوته البحرية أن يضم البحرين إلى دولة عمان عام ١٨٢٨م، ولكنه أخفق في ذلك، وقد أصيب شخصياً بجرح خلال معركة الاقتحام للبحرين[٢٦].

كما انتهز السلطان سعيد فرصة اغتيال حاكم ظفار الشيخ محمد بن عقيل عام ١٨٣٩م ليبعث بقوته البحرية إلى المنطقة، وقد تمكن من الاستيلاء على ظفار وضمها إلى دولته عمان، ثم اضطر إلى سحب قواته العسكرية من ظفار بعد وقت قصير لحاجته الماسة لها في حملاته على شرق أفريقيا إلا أن منطقة ظفار بقيت تابعة لعمان منذ ذلك الوقت[٢٧].

٦ – ومن واجبات الأسطول ومهام القوة البحرية كذلك حراسة الممتلكات الشاسعة لعمان والممتدة بين بندر عباس وزنجبار وكذلك حراسة عشرات الموانئ

الواقعة على السواحل العربية والأفريقية مع عشرات الجزر المتناثرة في الخليج العربي والمحيط الهندي[٢٨] .

٧ – ومن بين المهام للأسطول والقوة البحرية كذلك حماية السفن التجارية التي تبحر بين الهند وجنوب الجزيرة العربية وأفريقيا وذلك خدمة وحماية للعلاقات التجارية لعمان مع دول العالم[٢٩] .

٨ – كما كان الأسطول والقوة البحرية العمانية تقوم بخدمة العلاقات الدبلوماسية لعمان في الخارج. مثلما حدث مع السفينة (سلطانة) التي أقلت مبعوث السلطان سعيد وهو (أحمد بن نعمان الكعبي) إلى نيويورك عام ١٨٤٠م وكانت أول سفينة عربية تلقي بمراسيها في ميناء أمريكي بعد أن عقدت بين البلدين معاهدة عام ١٨٣٣م، وقد تمت مصادقة الرئيس الأمريكي (جاكسون) ومجلس الشيوخ على المعاهدة عام ١٨٣٤م، بعدها قدم المفوض الأمريكي (روبرتس) إلى مسقط من أجل تبادل الوثائق الخاصة بالمعاهدة وذلك على ظهر السفينة الحربية[٣٠]. كما أن السفينة الحربية (كارولين) المزودة بأربعين مدفعاً قد زارت مرسيليا عام ١٨٤٩م زيارة دبلوماسية حاملة معها البضائع الشرقية من أجل توطيد العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا[٣١] .

الواقع، لدى اطلاعنا على المهام والواجبات الكبيرة التي أداها الأسطول العماني والقوة البحرية في عهد السلطان سعيد نتوصل إلى حقيقة واحدة في هذا الصدد ألا وهي كفاءة الأسطول العماني وقدراته المتميزة التي مكنته من إنجاز هذه المهام والواجبات بنجاح كبير .

لذا، وجب علينا التعرف على العوامل والأسباب التي كانت تقف وراء نجاح الأسطول العماني والقوة البحرية وهي بإيجاز كما يلي :–

أ – التطور الهائل الذي حدث لعمان في حقل العلوم الملاحية في عهد السلطان سعيد. وهي في معظمها علوم عمانية عربية في الأصل، إذ مخر العمانيون المحيط الهندي منذ قرون قديمة واكتشفوا معظم السواحل الآسيوية والأفريقية قبل الأوروبيين، وقد ألف أساتذة العلوم البحرية العمانية العديد من الكتب في علوم الملاحة ومن بينهم أحمد بن ماجد وسليمان المهري والتي ظلت دليل عمل لكل من يشتغل في قيادة السفن(٣٢).

ب – استقدام السلطان سعيد خلال عهده للخبراء في الميادين العلمية والبحرية من بريطانيا وفرنسا وهولندا والبرتغال من أجل تفقد السفن المصنوعة في ترسانات صناعة السفن في الهند.

ج – الاتصالات العلمية البحرية بين عمان والإمارات الهندية الساحلية والتعاون الوثيق الذي كان يجري بين الجانبين من أجل بناء السفن الجيدة.

د – خلق موانئ عمانية مهيأة لاستقبال السفن من الدول الصديقة والمرتبطة مع عمان تجارياً ودبلوماسياً ولكافة الأنواع والأحجام، وقد أشار لذلك قادة الأساطيل البريطانية والأمريكية والهولندية والفرنسية والألمانية وقناصل هذه الدول وأكدوا توفر التسهيلات الكبيرة التي كانت تقدمها سلطات الموانئ العمانية إلى تلك الأساطيل وقد أثنوا جميعاً على ما لاقوه من مساعدة وكرم ضيافة من لدن السلطان سعيد وأولاده وممثليه(٣٣).

ومن أجل إعطاء صورة صادقة عن حجم الأساطيل الأجنبية التي كانت تزور موانئ عمان أيام السلطان سعيد نذكر فقط كنموذج أن أعداد السفن الأمريكية التي زارت ميناء زنجبار عام ١٨٣٤م. وحده قد بلغت ثلاثين سفينة(٣٤)

لابد لنا في نهاية المحور أن نشير بأن قطع الأسطول العماني وقوته البحرية خلال عهد السلطان سعيد لم تكن ذاتها في كل مهمة أو واجب، وإنما كانت تختلف في أنواعها وأحجامها وأعدادها من مهمة إلى أخرى. أي أن الأسطول كانت تتشكل سفنه حسب المهمة الموجه إليها وكذلك الأمر مع طاقم الأسطول. ولذلك نرى أن صناعة السفن تختلف هي الأخرى من سفينة لأخرى حسب المهمة المعدة لها السفينة وكانت أحواض بناء السفن تختلف هي الأخرى حسب إنتاجها للسفن لأن هناك سفناً معدة لغرض الشحن أو التجارة أو عبور المحيطات أو استخراج اللؤلؤ أو القتال. وهناك من السفن ما يعد لأغراض مختلطة مثل التجارة والقتال في آن واحد. كما أن هناك سفناً بحرية حربية ذات مهام متشعبة كالمطاردة والتصدي للقراصنة أو الدخول في معارك بحرية معادية. كما أن هناك سفناً تعد لغرض الإنزالات البحرية على السواحل وضرب القلاع والتحصينات الساحلية وإمداد السفن البحرية وغيرها .

كذلك الأمر مع طاقم السفينة حيث يختلف طاقم البحارة للسفن وسدنتها حسب مهامها ووفق حجمها وتسليحها .

فمثلاً السفن العابرة للمحيطات كان طاقمها يتألف خلال عهد السلطان سعيد من ٢٥ — ٤٠ بحاراً ومن بين هؤلاء النواخذة أو الربان ثم المعلم أو الملاح ثم الكراي أي الكاتب ثم الساهيانج أي مساعد الربان والسكاني وهو موجه

الدفة أو السكان ثم البانيلي وهو مراقب القوارب، ويلاحظ أن أغلب التسميات لطاقم السفن إما أن تكون فارسية أو هندية ما عدا تسمية المعلم التي أطلقها العمانيون على أمهر الملاحين في قيادة السفينة(٣٥) .

وعلى العموم، فإن الأسطول العماني والقوة البحرية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كان يحسب له ألف حساب من قبل جميع القوى والأساطيل الموجودة في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي وحتى الأسطول البريطاني الذي كان يحتل المرتبة الأولى في المنطقة كان قادته يخشون لو قرر السلطان سعيد مرة أن يفرض سيادته على المحيط الهندي والخليج العربي وواجه الأسطول البريطاني، فإن بريطانيا ستجد نفسها – في ذلك الوقت – في وضع لا تحسد عليه لأنها كانت تدرك صعوبة مواجهة الأسطول العماني وقوته البحرية ناهيك عن الانتصار عليه ودحره(٣٦) .

وقد ذكر لنا (جيان) ذلك صراحة حيث أكد قلق الحكومة البريطانية من تعاظم القوة البحرية لدى السلطان سعيد في المنطقة(٣٧) .

والواقع، أن هذا التخوف والقلق البريطاني دفع الإنجليز إلى التقرب من السلطان سعيد وعقد معاهدة مع عمان عام ١٨٣٩م والتي أدت إلى دعم العلاقة بين الجانبين وأثمرت التعاون الوثيق والتنسيق بينهما في العديد من المعارك التي خاضوها معاً ضد التحالفات المعادية لهما في المنطقة(٣٨) .

الخاتمة

توصلنا من خلال البحث إلى ما يلي :-

أولا :

تطور الأسطول والقوة البحرية كثيراً في عمان خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بحيث عُدَّ من أكبر الأساطيل في الخليج العربي والمحيط الهندي .

ثانياً :

كان للسلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٤ - ١٨٥٦م) دور كبير فيما وصل إليه الأسطول والقوة البحرية من تعاظم وقوة، وذلك بسبب شغفه بالبحر وتطلعه لضم العديد من المناطق إلى دولته عمان بالإضافة إلى شجاعته في مواجهة الأعداء والمتمردين على سلطته .

ثالثا :

حدث تطور نوعي كبير للأسطول العماني والقوة البحرية أيام السلطان سعيد حيث رفدت أحواض بناء السفن المعروفة بتميزها بصناعة السفن في كل من عمان والهند الأسطول العماني بأنواع متقدمة من السفن الحربية الكبيرة فضلاً عن شراء السفن الأوروبية وجلب الخبراء الأوروبيين لمتابعة صناعة السفن العمانية في كل من أحواض الهند وعمان والتي كانت تنتج سفناً كبيرة ذات مواصفات أوروبية، الأمر الذي جعل الأسطول والقوة البحرية العمانية ترتقي إلى مستوى المهام والواجبات المعدة لها كالفتح ومواجهة الأعداء أو التجارة وحماية العلاقات التجارية لعمان أو استرداد المناطق المستحوذ عليها من قبل المتمردين .

د. فاضل محمد الحسيني

جامعة بغداد / كلية التربية للبنات

الهوامش

١ – عمان في التاريخ. مجموعة البحوث التي ألقيت في ندوة عمان في التاريخ المنعقدة في مسقط عام ١٩٩٤م. سلطنة عمان ودار إيبل للنشر المحدودة. لندن ١٩٩٥م ص ص٣٣٤-٣٣٥.

٢ – هولي. دونالد. عمان ونهضتها الحديثة. مؤسسة ستايسي الدولية. لندن. ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحي. ١٩٧٧م. ص٤٧.

٣ – Coupland, R, East Africa and it`s Invaders. London, 1968. P. 222.

(لقي السلطان سعيد حتفه وهو في عرض البحر).

٤ – هولي. مصدر سابق. ص٤٨.

٥ – جريجوريف. سيرجي. عمان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. مجلة الوثيقة. البحرين. العدد (٤١). السنة ٢٠٠٢م. ص١٥٤.

٦ – السيابي. سالم بن حمود بن شامس. عمان عبر التاريخ. سلطنة عمان. الجزء الثاني. ١٩٨٠م. ص١٥٣.

٧ – عمان في التاريخ. مصدر سابق. ص٣٢٩.

٨ – مايلز. س. ب.. الخليج بلدانه وقبائله. ترجمة محمد أمين عبد الله. الطبعة الرابعة. عمان ١٩٩٠م. ص١٤٧.

٩ – لاندن. روبرت جيران. عمان منذ ١٨٥٦م مسيراً ومصيراً. ترجمة محمد أمين عبد الله. الطبعة الثالثة. عمان ١٩٨٣. ص ص٥٠-٥٢.

١٠ – عمان في التاريخ. مصدر سابق. ص٣٣٢.

١١ – Amillton, A new Account of the East India 1688-1723, Vol. I, P 45.

نقلاً عن الربيعي. إسماعيل نوري. نشاط عمان البحري خلال القرن الثامن عشر. مجلة الوثيقة. البحرين. العدد (٢٤). السنة ١٩٩٤م. ص٧٩.

١٢ – عمان في التاريخ. مصدر سابق. ص٣٣٢.

١٣ – هذه التشكيلات للأسطول العماني أيام السلطان سعيد اعتمدت من المصادر التالية:

أ – فيلبس. ويندل. تاريخ عمان. ترجمة محمد أمين عبد الله. ط ٤. ١٩٩٤م. عمان ص ص١١٠-١١٣.

ب – روث. رودلف سعيد. سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١–١٨٥٦ م. ترجمة عبد المجيد حسن القيسي. البصرة ١٩٨٣م. ص١٨٨.

ج – عمان في التاريخ. مصدر سابق. ص ص٣٣٤–٣٥٠.

د – عمان في أمجادها البحرية. سلسلة تراثنا العدد الثامن. الطبعة الثالثة. عمان. ١٩٩٤م. ص ص٨٩–٩٦.

١٤ – قاسم. جمال زكريا. دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠–١٩١٤م. الكويت. الطبعة الثانية ١٩٧٤م. ص٨٣.

١٥ - Guillain, M., Documents Sur l`Histoire, la Geographie, et le Commerce del`Afrique. Tomell. Paris, 1856k PP. 253-254.

ولنا أن نقدر قوة السلطان العسكرية. حيث وصل تعداد جنده إلى ربع مليون جندي في ذلك الوقت.

١٦ - Selection from the Records of Bombay Government, Vol. XXIV, Bombay, 1856, P. 2826;

روث. رودلف سعيد. سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان. ١٧٩١–١٨٥٦م. ترجمة عبد المجيد حسين القيسي. البصرة ١٩٨٣م. ص١٨٨.

١٧ – عمان في أمجادها البحرية. مصدر سابق. ص٩٥.

١٨ – لوريمر. جون جوردن. دليل الخليج. القسم التاريخي. ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر. بيروت ١٩٧٠م. الجزء الأول. ص١٦٤.

١٩ – مايلز. مصدر سابق. ص٢٤٣.

٢٠ – بن حبيب. مال الله بن علي. ملامح من تاريخ عمان. ترجمة محمد محمد كامل. عمان بدون تاريخ. ص٦٢٥.

٢١ - B.P.S.P. No. 8320-26 dated 7/9/1809, from Governor of Bombay to Imam of Muscat.

٢٢ – فيلبس. مصدر سابق. ص ص١١٣–١١٦.

٢٣ - Bombay Political Proceedings, No. 27 dated 7/7/1830, from Assokin Assure lance of Muscat to the Persian Secretary.

٢٤ - B.P.P.F., No. 7243, dated 29/10/1824 from Imam of Muscat to Governor of Bombay.

٢٥ – فيلبس، مصدر سابق، ص١٢٥ ؛ بن حبيب، مصدر سابق، ص٢٥ .

٢٦ – Badger, George Percy, History of the Imams and Seyyeds of Oman By Salil Razik from A.D. 661-1856, translated from the Original Arabic and edited with appendices and an introduction containing the History, London, 1871, P. 347.

٢٧ – مايلز، مصدر سابق، ص٢٧٢ ، روث، مصدر سابق، ص٨٧ .

٢٨ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٣٣٥ .

٢٩ – المصدر نفسه، ص ص٣٣٥-٣٣٦ .

٣٠ – B.P.P. No. 211, dated 18/11/1885 from Resident in the Gulf, to the Governor in Council.

٣١ – عمان في أمجادها البحرية، مصدر سابق، ص٦٦ .

٣٢ – المصدر نفسه، ص ص٧٧-٨١ .

٣٣ – Parsons, Travel in Asia and Africa, London, 1808, P. 220;

لاندن، مصدر سابق، ص٧٨ .

٣٤ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص ص٣٣٦-٣٣٧ .

٣٥ – المصدر نفسه، ص٣٥١ .

٣٦ – روث، مصدر سابق، ص١٨٨ .

٣٧ – Guillain, M., OP. Cit. PP. 242-254.

٣٨ – Atchison, Treaties, Engagement and Sanads relating to India and Neighboring Countries, Vol. XI, Delhi, 1833, P. 284.

فضلاً عن ذلك فإن منطقة الخليج العربي جزء من (الشرق الأوسط) الذي يتصل مع فرنسا، وأوروبا عامة بجوار جغرافي لا يمكن تجاهله[١] .

إن النفط في منطقة الخليج العربي هو الأساس الذي يرتكز عليه تعامل القوى الكبرى مع هذه المنطقة، ذلك أن النفط كان ومازال محور اهتمام تلك القوى، وضمان استمرار تدفقه وبأسعار زهيدة هو أهم الأهداف التي تتوخاها القوى الكبرى من علاقاتها مع منطقة الخليج العربي، وفرنسا كإحدى الدول الصناعية الكبرى مهتمة بهذه المادة . علاوة على أن الأزمات التي أدت إلى صراعات الحدود في منطقة الخليج العربي هي أزمات نفطية بالدرجة الأولى، والصراع على النفط هو صراع على النفوذ في الخليج، لذا فإن القوات الأجنبية تسعى لاستغلال هذه الصراعات لتتواجد في المنطقة تحت شعار الحفاظ على المصالح الحيوية للغرب[٢] .

إن فرنسا تتطلع بطموح إلى أن يكون لها سياسة خارجية مؤثرة تتفاعل مع دول المنطقة في ظل ما تشهده السياسة العالمية من استراتيجيات مستحدثة للدول الكبرى الأخرى . وهي في توجهها نحو المنطقة فإنها تدرك أهميتها الاقتصادية، حيث ترى أن من يسيطر عليها يمكنه منح اقتصاده أقوى الخصائص التنافسية، وأن من خلالها يمكن بناء استراتيجية فرنسية لترتيب أوضاع التنافس أو الصراع بين القوى الاقتصادية في القرن الحادي والعشرين .

لذا حرصت فرنسا على النفاذ بقوة إلى هذه المنطقة على أساس أن يكون لها قدرة تنافسية تقف في مواجهة الهيمنة الأمريكية، ومحاولات القوى الأخرى للدخول إلى هذه المنطقة الحيوية من خلال سياسة أكثر انفتاحاً على دول المنطقة ومشكلاتها .

إن منطقة الخليج العربي والتي تع د منطقة حيوية لفرنسا هي منطقة نفوذ مطلقة تهيمن عليها الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك تسعى فرنسا إلى التنسيق مع دول كبرى أخرى كالصين وروسيا لإيجاد قوى قطبية متعددة في النظام الدولي. ومن خلاله يتم تبني إقامة شبكة محاور تغطي منطقة الخليج العربي لما تحتويه من ثروات نفطية واستثمارات تجارية ومالية كبيرة، بهدف مواجهة القطب الأمريكي المهيمن[٣] . وفي المقابل فإن دول المنطقة تحرص على التعامل مع فرنسا لاعتبارات استقلالها النسبية ومكانتها السياسية التي تتمتع بها لدى مختلف الأطراف إقليمياً ودولياً، على الرغم من الميل الواضح في العلاقات الخليجية باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية .

التعاون الاقتصادي الفرنسي – الخليجي

على الرغم من اختلاف اتجاهات النظم السياسية في منطقة الخليج العربي. فقد عملت السياسة الخارجية الفرنسية على بناء علاقات اقتصادية جيدة مع دول المنطقة، على نحو يحفظ المصالح الفرنسية، وبما يهيئ مزيداً من الحضور في المجالات الاقتصادية والتجارية .

ورغم قوة الحاجز الأمريكي في المنطقة، إلا أن فرنسا تبذل مساعي كبيرة لتنمية وجودها في المنطقة. إذ أن أي نجاح تحققه يعد بمثابة اكتساب لأرضية نفوذ جديدة خدمة لتلك المصالح التي ترتكز في أساسها على تحقيق استقرار وتنمية وارداتها النفطية من منطقة الخليج. ورغبتها باستغلال طاقة الأسواق الخليجية لامتصاص الصادرات الفرنسية المختلفة، واستعدادها للمشاركة في

تنفيذ مشاريع التنمية والبنى التحتية الأساسية . لاسيما وأن تقريراً مصرفياً كان قد توقع أن ترتفع عائدات مجل س التعاون الخليجي خلال العام ١٩٩٩م إلى (٨٧) مليار دولار، بزيادة نسبتها ٣٩٪ عن العام السابق ١٩٩٨م الذي بلغت عائداته حوالي ٥٩ مليار دولار[٤] .

ازدادت الاستثمارات الفرنسية في دول الخليج العربي في قطاع النفط والغاز وبدأت بحملة لاجتذاب المستثمرين الخليجيين، ووصلت الاستثمارات الفرنسية في دول مجلس التعاون الخليجي إلى حوالي عشرة مليارات دولار، كما تعد فرنسا أكبر شريك تجاري لدول الخليج ، إذ بلغت صادراتها حوالي ١٠,٢ مليار دولار في العام ١٩٩١م، وتسعى جاهدة إلى زيادة هذه العلاقة، من خلال سعي الشركات الفرنسية إلى استكمال محادثاتها النفطية مع العراق لضمان حصولها على العوائد النفطية[٥] .

لقد اعتمدت دول الخليج العربي مبدأ الاستثمار في مجال البتروكيماويات للخروج من وحدانية النفط، وعلى الرغم من عروض المشاركة المغرية جداً التي أبدتها دول المنطقة للشركات الأجنبية، إلا أن الاستجابة الأوروبية عموما كانت قليلة، وتمثلت مشاركة فرنسا بشركة (فحم فرنسا كيمياء) المشاركة للشركة القطرية(قطر جنرال بتروكيميكال كمباني — Qater General Petro-Chimical Company Q.G.P.C.)، في مقابل مشاركة أمريكية يابانية نشيطة، ويعتقد أن الأوروبيين، ومنهم الفرنسيون، قد أخطأوا بعدم انخراطهم في الصناعات البتر وكيماوية الخليجية وتقوقعهم في مناطقهم الدفاعية بهدف حماية أسواقهم التقليدية، إذ تبين لهم فيما بعد أن الصناعات البتر وكيماوية الخليجية لم تكن مربحة وحسب، وإنما لها مستقبل باهر[٦] .

اهتمت فرنسا بتطوي ر مصالحها الاقتصادية في السعودية، لكي تكون منطلقاً للانتشار في تطوير العلاقات الفرنسية الخليجية، وحرصت فرنسا على تشجيع الشركات السعودية، فحصلت مجموعة الأعمال السعودية على أرقى ميدالية فرنسية من الرئيس الفرنسي جاك شيراك (وسام جوقة الشرف)، وأشاد الرئيس الفرنسي في خطاب له ألقاه السفير الفرنسي في السعودية دو لافورتيل برجال الأعمال السعوديين في تطوير العلاقات بين البلدان الخليجية وفرنسا من خلال التعامل التجاري مع مجموعة كبيرة من الشركات الفرنسية . ومن جهتهم طالب رجال الأعمال السعوديون الشركات الفرنسية بزيادة تقربها من الأسواق المحلية من خلال تكثيف برامجها الدعائية والتسويقية(٧) .

أما بالنسبة لدولة قطر فقد وقعت فرنسا وقطر اتفاقية لعدم فرض رسوم مزدوجة. في الوقت الذي كانت فيه الحكومة القطرية تدرس إمكانية شراء سفن فرنسية لنقل الغاز بقيمة مليارات الدولارات، وقد شهدت فرنسا واليابان تنافساً على عقد لبيع قطر سبع ناقلات للغاز بقيمة ٧ — ١٠ مليار فرنك، وبسبب المنافسة اليابانية سعت فرنسا للحصول على نصف الصفقة، وقد أعلن الرئيس شيراك أثناء زيارته لقطر في شهر يوليو (تموز) ١٩٩٦م لأمير قطر بأن فرنسا ترغب في المشاركة بنشاط في تنمية قطاع الغاز . وبالرغم من أن فرنسا تحتل المرتبة السادسة بين الدول المصدرة لقطر، فإن فرنسا تعد على الصعيد التجاري شريكاً صناعياً مهماً. وأوضحت وزارة التجارة الخارجية الفرنسية في بيان لها بأن دورة اللجنة المشتركة سمحت ببحث التعاون الفرنسي القطري في ميادين إصلاح الأراضي وإعداد الكوادر الصناعية ومشاريع التنمية في قطاعات الغاز والمنتجات البتروكيماوية والأجهزة المدنية والمبادلات التجارية، وأكدت

أن الصادرات الفرنسية إلى قطر تضاع فت ثلاث مرات بين العامين ١٩٨٨ (٤٠٠ مليون فرنك فرنسي) و١٩٩١م (١,٢ مليار فرنك فرنسي)[٨] . وبهدف المزيد من الاهتمام بالحضور الفرنسي في قطر جاءت زيارة وزير الخارجية هوبير فيدرين في السادس من مارس (آذار) ١٩٩٩م. وشهدت الزيارة إنشاء غرفة تجارة فرنسية/قطرية لدعم التعاون الاقتصادي، إلى جانب توقيع فيدرين اتفاقاً للتعاون السياسي يتضمن إضفاء طابع رسمي على المشاورات الواسعة النطاق بين البلدين[٩] . وفي السابع من يونيو (حزيران) ١٩٩٩م فازت مجموعة تكنيب الفرنسية بعقد تزيد قيمته على ٧٥٠ مليون دولار لبناء مصنع للبتروكيماويات في قطر[١٠] . فضلاً عن ذلك فقد كانت هناك زيارات متبادلة لوفود قطرية وفرنسية. ومنها زيارة وزير الطاقة والصناعة القطري عبد الله بن حمد العطية إلى باريس في مايو (أيار) ٢٠٠٠م لبحث سبل تعزيز مبيعات الغاز القطري المسال والبتروكيماويات والمكثفات في السوق الفرنسي من شركة (توتال فينا ألف) الفرنسية التي تمتلك ١٠ ٪ من مشروع قطر للغاز المسال[١١] .

أما بالنسبة لدولة الإمارات العربية فقد بلغت الاستثمارات الفرنسية فيها رقماً قياسياً. فبلغت في العام ١٩٨٩م ما قيمته (٩٣٥) مليون فرنك، ثم انخفض إلى (٣٥) مليوناً، ثم سجل ارتفاعاً في عامي ١٩٩١-١٩٩٢م وبلغ (١١٣٦) مليون فرنك. وتعد شركة توتال أكبر المستثمرين، وهناك أيضاً اثنتا عشرة شركة فرنسية تستثمر في منطقة جبل علي الحرة[١٢] .

وفي مملكة البحرين توجد استثمارات مصرفية فرنسية، إذ يوجد بها سبعة مصارف فرنسية معظمها يعمل في الخارج، وثلاثة مكاتب للتمثيل المصرفي وست شركات صناعية، ويمثل المال المتداول ما قيمته (٩٧) مليون فرنك

فرنسي في أواخر ١٩٩٠م، وعبر جلالة ملك البحرين بأن التبادل الاقتصادي مع فرنسا في نمو دائم خلال زيارته لباريس في ١٢ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٠[١٣].

أما بالنسبة للكويت وعُمان فهما فقيرتان بالن سبة للاستثمارات الفرنسية، وبهدف تحسين هذه الصورة انعقد المؤتمر الاقتصادي الفرنسي/الكويتي في العاشر من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٩م وشاركت فيه العديد من الشركات الفرنسية وعرضت خدماتها في مجالات الاتصالات والنقل والكهرباء والنفط[١٤].

وفرنسا هي بلد استقبال أيضاً للاستثمارات العربية، إذ وصل مخزون الاستثمارات المباشر، حسب مصرف فرنسا، إلى ٣,٢ مليار فرنك فرنسي في أواخر العام ١٩٩٠م، منها ٢٤.٣ ٪ استثمارات كويتية[١٥] . وحصلت مشتريات كويتية عدة في فرنسا ومنها برج منهاتن في منطقة الديفانس ومعرض الشانزيليزيه ومجمع محطة مونبارناس وصوفيا أنتيبوليس . وإذا ما تم إضافة الحصص الكويتية في باريبا وسوييز وسيروس وبارفينانس إلى مشترياتها العقارية، فيتجاوز المبلغ ٣ مليارات دولار[١٦] .

وعلى الصعيد التجاري نشرت غرفة التجارة العربية/الفرنسية في باريس في يونيو (حزيران) ١٩٩١م دراسة جاء فيها أن فرنسا احتلت المرتبة السابعة في قائمة المستوردين الرئيسيين من الإمارات العربية المتحدة في العام ١٩٨٩م بـ (٣١٥) مليون دولار، وجاء موقع فرنسا في المرتبة الرابعة في قائمة المستوردين الرئيسيين من السعودية (١.٨) مليار دولار، وفي المرتبة السادسة عشرة في قائمة المستوردين من الكويت (١٥٠) مليون دولار، وفي المرتبة التاسعة في قائمة المصدرين إليها(٢٣٢) مليون دولار، وفي المرتبة الثالثة عشرة في قائمة

المستوردين الرئيسيين من عُمان (١١) مليون دولار، وفي المرتبة السادسة في قائمة المصدرين إليها (٨٠) مليون دولار، وفي المرتبة الثانية عشرة في قائمة المستوردين الرئيسيين من البحرين (٣) مليون دولار وفي المرتبة التاسعة في قائمة المصدرين إليها (٤١) مليون دولار، وفي المرتبة السادسة عشرة في قائمة المستوردين الرئيسيين من قطر (١٤) مليون دولار، وفي المرتبة السادسة في قائمة المصدرين إليها (٨٥) مليون دولار[١٧].

وسجل الميزان التجاري عجزاً فرنسياً في الصادرات لصالح السعودية طيلة الأعوام ١٩٩١-١٩٩٧م. كذلك فقد حقق العراق فائضاً في صادراته إلى فرنسا مقارنة بوارداته في العام ١٩٩٧م، إذ بلغت الصادرات العراقية إلى فرنسا (٥٢٦) مليون دولار، بينما بلغت وارداته (١٣٣) مليون دولار، وبهذا زاد التبادل التجاري بين البلدين. وحققت فرنسا تطوراً في إيراداتها من العراق. بينما التصدير مازال محدوداً بسبب ظروف الحصار المفروض عليه . أما بالنسبة لبقية دول الخليج العربي فقد حققت فرنسا فائضاً في ميزانها التجاري لصالحها منذ العام ١٩٩١م[١٨].

التعاون الثقافي الفرنسي - الخليجي

يعد الجانب الثقافي من بين أهم المرتكزات الأساسية للسياسة الخارجية الفرنسية تجاه المنطقة العربية عموماً، ومنها الخليج العربي، وكان التوجه الثقافي الفرنسي لمنطقة الخليج العربي يعتمد على عدم فرض لغتها وثقافتها بل إن مستوى العلاقة تكون عبر الاتفاقيات الثنائية ومن خلال التعامل المتكافئ،

مثل تبادل المراكز الثقافية . وت سعى فرنسا إلى فتح نافذة للثقافة الفرنسية في منطقة الخليج العربي لتعويض النجاح الذي حققته الولايات المتحدة الأمريكية في التغلغل إلى المنطقة. وجدير بالذكر أن المجال الثقافي طالما اختصت به فرنسا وبرعت في توظيف آلياته .

إن الحضور الثقافي الفرنسي اتخذ – على الأغلب – طابعاً دبلوماسياً من خلال مؤسسات فرنسية تتمركز في البلدان التي لدى فرنسا تمثيل دبلوماسي فيها بهدف نشر التعليم والثقافة وبموجب اتفاقيات منظمة، وتتولى هذه المؤسسات والمراكز الثقافية تعليم اللغة الفرنسية، وتأطير أنشطة متنوعة بتنظيم عروض ثقافية وفنية وسينمائية وغيرها، وتمثل هذه البعثات عنصر قوة ودعم للثقافة الفرنسية[١٩] .

أما دول الخليج العربي فإن لها مؤسسات وملحقيات ثقافية تعمل في إطار التمثيل الدبلوماسي في باريس، وتقوم هذه المكاتب بدور إعلامي وثقافي متبادل مع المؤسسات الإعلامية والثقافية الفرنسية، إلى جانب بعض المعاهد العربية والإسلامية ومنها معهد العالم العربي في باريس . كما أن هناك أنشطة مختلفة تقوم بها أحزاب ومنتديات وشخصيات فرنسية وعربية تسهم في تعزيز التعاون الثقافي، مثل مركز الدراسات العربي الأوروبي في باريس الذي يحظى بدعم خليجي .

وفي مجال الاتصال الثقافي والإعلامي يعد مشروع بث راديـو مونت كارلو (FM) في قطر الأول من نوعه في الخليج العربي. وقد وقع الاتفاق في الأول من مارس (آذار) ١٩٩٦م بين رئيس إذاعة فرنسا الدولية (جون بول كلوريك) ورئيس الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون القطري حمد بن تامر آل ثاني. وعدُ

كلوريك الاتفاق امتد اداً للاهتمام الفرنسي التقليدي بالعالم العربي في كنف احترام ثقافات الآخرين دون وصاية أو هيمنة، ومن جهته عدُ الشيخ حمد بن تامر الحدث بأنه نقلة مهمة . وبدأت إذاعة البث في الدوحة في منتصف يونيو (حزيران) ١٩٩٩م بحضور وزير الخارجية القطري حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني والسفير الفرنسي في الدوحة تريزال. وأوضح السفير بأن هذه الخطوة تأتي تعزيزاً للعلاقات الفرنسية العربية عموماً، والقطرية بشكل خاص . فضلاً عن ذلك فقد تم افتتاح البث الإذاعي في البحرين في الأسبوع الأول من أكتوبر (تشرين الأول) لتكون ثاني دولة خليجية تبث منها إذاعة مونتكارلو . وعبر الرئيس الفرنسي جاك شيراك أثناء زيارته إلى البحرين في الثاني عشر من سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٠م عن ارتياحه لعمل إذاعة فرنسا الدولية في البحرين، ومن جهته أكد جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك البحرين على الاهتمام البحريني بتدريس اللغة والثقافة الفرنسية في بلده[٢٠] .

وحرصت فرنسا على احترام الثقافات الأخرى، فقد سحبت ديوان "أزهار الشر" الذي يدرس في المدرسة الفرنسية في أبوظبي، بسبب احتجاج أولياء أمور الطلبة على غلاف الكتاب، وقدم مصدر دبلوماسي فرنسي اعتذاراً رسمياً لأن الكتاب لا يتناسب والقوانين المحلية[٢١] .

وفي الثالث من ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٠م تم افتتاح معرض الكتاب الفرنسي في بغداد وتضمنت فعالياته عدداً من الندوات الثقافية والفكرية، إلى جانب عرضه للكتب الفرنسية ولأول مرة منذ عشر سنوات، وفي ذلك إشارة إلى تنامي عودة هادئة للتعاون الثقافي بين فرنسا والعراق[٢٢] .

وضعت فرنسا قضية الأمن في الخليج العربي وترتيباته ضمن اهتماماتها وأعطته الأولوية في سياستها تجاه المنطقة، وسعت إلى القيام بدور مشارك وتعاملت معها بوصفها قضية من قضايا أمنها الاقتصادي النفطي، وقضية من قضايا أمن المنطقة واستقرارها . وأعربت فرنسا عن تأييدها لقيام مجلس التعاون الخليجي ودول المنطقة ببناء نظام دفاعي ذاتي لتولي الدفاع عن نفسها، وذلك لإبعاد الخليج العربي عن الصراعات الدولية . فأعلن الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران أثناء زيارته إلى عمان في الثلاثين من يناير (كانون الثاني) ١٩٩٢م بأن أمن الخليج هو من مسئولية دوله وينطلق أساساً من تفاهم هذه الدول فيما بينها ومن خلال احترام سيادة كل دولة[٢٣] .

إن السياسة الفرنسية تجاه العراق أكثر مرونة من السياسة الأمريكية والبريطانية، ويرجع ذلك إلى المصالح الاستراتيجية في العراق، وظهرت بوادر سياسية أكثر إيجابية مع فوز اليمين الفرنسي برئاسة إدوارد بيلادور في العام ١٩٩٢، ومع تولي جاك شيراك رئاسة الجمهورية قي العام ١٩٩٥م، وظهور تعاون اقتصادي واتصالات سياسية، خاصة فيما يتعلق برفع الحصار عن العراق، والمواقف الفرنسية غير المتضامنة مع المواقف الأمريكية ضد العراق، بيد أن هناك محددات حكمت القرار الفرنسي تجاه العقوبات ضد العراق تتمثل في القرارات الدولية التي صوتت عليها فرنسا، ويصعب عليها تجاوزها إلا من خلال مجلس الأمن .

أما بالنسبة لدول مجلس التعاون ا لخليجي، فقد تم الاتفاق في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٤م على مذكرة تفاهم فرنسية — سعودية حول مساعدة فرنسا للسعودية في تحسين أمن حدودها . وتم تعزيز التنسيق الأمني بين البلدين في الاجتماع الذي عقد في جدة في السابع من يونيو (حزيران) ١٩٩٦م بين الرئيس الفرنسي جاك شيراك ووزير الداخلية السعودي نايف بن عبد العزيز، وجاء ذلك أثناء زيارة الرئيس الفرنسي إلى السعودية، وكرس الاجتماع للتنسيق في مجال مكافحة الإرهاب، وأشار الرئيس شيراك الذي كان يرافقه وزير داخليته جان لوي دوبرييه إلى شراكة سياسية واقتصاديـة وثقافية تبدأ بالمسائل الأمنية(٢٤) .

وترتبط فرنسا وقطر بمعاهدة دفاعية منذ العام ١٩٩٤م، وكان لفرنسا درر إيجابي في مساندة أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني على أثر المحاولة الإنقلابية الفاشلة في السابع من فبراير (شباط) ١٩٩٦م، وأعلن المتحدث باسم الخارجية الفرنسية جاك ريملهارت أن فرنسا "تعتزم دعم حق قطر في ضمان استقلالها وسيادتها"، وأكدت فرنسا أن اثنتين من سفنها الحربية ستجريان تدريبات مشتركة مع القوات القطرية لإظهار مساندة باريس للحكومة القطرية . فضلاً عن ذلك فقد وقعت فرنسا وقطر مذكرة تفاهم بالتعاون في مختلف المجالات الأمنية في العاشر من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٦ في الدوحة، وقعها وزير الداخلية الفرنسي جان لوي دوبرييه ووزير الداخلية القطري الشيخ عبد الله بن خليفة آل ثاني. خلال مشاركة الوزير الفرنسي في معرض لأجهزة الشرطة والأجهزة العسكرية الذي تم افتتاحه في الدوحة في التاسع من نوفمبر

(تشرين الثاني) ١٩٩٦ . وتج در الإشارة إلى أن ٨٠٪ من أجهزة القوات المسلحة القطرية هي فرنسية .

كما وقعت قطر مع فرنسا في الرابع والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٨م اتفاقاً دفاعياً جديداً وقعه وزير الدفاع الفرنسي ألان ريتشار ورئيس القوات القطرية العميد الركن حمد بن علي العطية. وتضمن التزام فرنسا بضمان أمن قطر. وتطوير المواد كلها الواردة في الاتفاق الدفاعي الموقع بين البلدين في العام ١٩٩٤م. وقضى الاتفاق بتشكيل لجنة مشتركة تضم رؤساء أركان البلدين تجتمع بانتظام ابتداءً من العام ١٩٩٩م[٢٥] .

أما بالنسبة لدولة الإمارات العربية المتحدة فقد سارعت فرنسا منذ العام ١٩٩٠م إلى عقد اتفاقية دفاعية معها ساعدت على تمهيد الطريق أمام المبيعات الدفاعية . كما التزمت فرنسا بالدفاع عن دولة الإمارات بموجب الاتفاقية الدفاعية الموقعة بينهما في الثامن عشر من يناير (كانون الثاني) ١٩٩٥م والتي وقعها وزير الدفاع الفرنسي فرانسوا ليوتار ووزير الدولة للشئون الخارجية الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان، وهذه الاتفاقية تمتد لعشر سنوات من تاريخ توقيعها[٢٦] .

كما وقعت فرنسا اتفاقية عسكرية مع الكويت في الثامن عشر من أغسطس (آب) ١٩٩٢ مدتها عشر سنوات ونصت على التدريب المشترك وتبادل الخبرات ومبيعات الأسلحة. بالإضافة إلى التزام فرنسا بمساعدة الكويت في حال تعرضها إلى أي تهديد خارجي . وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٣م عقدت اتفاقية تفضيلية للتعاون العسكري مع بروتوكول لشراء أسلحة ومعدات فرنسية .

وعندما اقترحت الولايات المتحد ة الأمريكية على دول الخليج العربي نظاماً دفاعياً مضاداً للصواريخ، أعلن وزير الدفاع الفرنسي ألان ريتشار في الخامس والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٨م بأن ذلك النظام لن يضمن أمن هذه الدول، وأعلن أن فرنسا لا تشاطر وجهة النظر الأمريكية، لأن نشر مثل هذا النوع من الأسلحة سيزيد من مخاطر سباق التسلح، وهو لن يعطي ضمانات إضافية، وعـد هذه المنظومة بأنها ثقيلة ومكلفة جداً ولا تؤمن أمن الخليج على المدى البعيد[٢٧] .

أما بالنسبة للتسلح في الخليج العربي فإن فرنسا تهيمن على السوق القطرية بنسبة ٨٣,٩٪، والإماراتية ٥٧,٥٪، أما بقية الدول الخليجية فتشكل فرنسا نسبة ٤٣,٩٪ بالنسبة للسعودية، و٢٨,٩٪ للكويت، و١١,٢٪ لعمان، و ١٠,٦٪ للبحرين[٢٨] .

واعتمدت بعض الدول الخليجية نظام الأوفست "Offset" في إدارة الصفقات التسليحية، وينطوي هذا النظام على إعادة توظيف جزء من القيمة الإجمالية للصفقات في اقتصاد البلد المشتري، وذلك أحد الأشكال التعاقدية التي تحقق فوائد متبادلة للجانبين . ويتضح هذا من مدلولات الصفقة التي وقعتها دولة الإمارات العربية المتحدة في العام ١٩٩٣ مع فرنسا والذي يتبين منه مدى تغلغل الاعتبارات الاقتصادية — التجارية، إذ اتخذت دولة الإمارات من نظام الأوفست أساساً لتعاقداتها التسليحية، وتمكنت من إدراج هذا النظام في العقد الذي أبرم مع شركة "جيات" الفرنسية لتصدير (٤٣٦) دبابة من طراز (لوكلير) بقيمة ٣,٥ مليار دولار، حيث نص صراحة على ضرورة قيام الشركة باستثمار ٦٠٪ من إجمالي قيمة الصفقة في إقامة مشاريع داخل الإمارات[٢٩] .

حرصت فرنسا على الإفادة من فائض الأ موال النفطية الخليجية بالسعي إلى ربط الدول الخليجية بسلسلة من العقود والاتفاقيات المتنوعة، مثل إعادة تأهيل القوات المسلحة الخليجية وتزويدها بالسلاح، وإنشاء بنى تحتية ضخمة للقوات البرية والبحرية والجوية . ونجحت فرنسا في تعزيز مكانتها في سوق الأسلحة في دول مجلس التعاون الخليجيـــة, ففي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٤م حصلت على عقد من المملكة العربية السعودية بلغت قيمته (٣,٧) مليار دولار لتوريد فرقاطتين وتجهيزات برية, وجاء ذلك في أعقاب صفقة مؤقتة قيمتها (٦٩٣) مليون دولار لإصلاح أربع فرقاطات وسفينتي تموين سبق بيعها للسعودية، وفي السنة نفسها طلبت قطر من فرنسا شراء طائرات مقاتلة من طراز "ميراج ٥ — ٢٠٠٠" بلغت قيمتها (١,٤) مليار دولار, وفي العام ١٩٩٥ طلبت الكويت شراء زوارق دورية سريعة من فرنسا قيمتها (٤٥٥) مليون دولار, وأبرمت الإمارات صفقة قدرها (٢٣٥) مليون دولار لشراء سبع طائرات مروحية من طراز "بانثر" مزودة بصواريخ "أكزوست AM39" مضـــادة للدبابات[٣٠] .

ويعد الاتفاق الفرنسي الإماراتي حول طائرة "رافال" الفرنسية تكريساً للشراكة الاستراتيجية بين البلدين في المجال العسكري، لاسيما وقد سبقتها في العام ١٩٩٧ صفقة طائرات "ميراج ٩ — ٢٠٠٠" بتجهيزاتها الحديثة الموازية للطائرات الأمريكية "إف ١٦" . كما نجحت الإمارات في مفاوضاتها للحصول على صواريخ "سكالب" الفرنسية البريطانية الصنع والذي حصل على الضوء الأخضر لتصديره إلى الإمارات على الرغم من المعارضة الأمريكية، هذا الصاروخ الذي يسمى "الشاهين الأسود" والذي تعده الولايات المتحدة سلاحاً دقيقاً لا يجوز تصديره لدولة ثالثة . وتمت صفقة بين فرنسا والإمارات شملت بيعها

نظام اتصالات عسكرية أرض – جو تنتجه شـركة طومسون بقيمـة تصل إلى (٢٠٠) مليون دولار, ويأتي العقد الفرنسي ضمن الاتفاق الدفاعي المبرم مع الإمارات, والذي يضع قوات البلدين, لاسيما سلاح الطيران, في موقع شراكة استراتيجية حقيقية لإعداد الكوادر العسكرية الإماراتية المتخصصة في الحرب الإلكترونية . فضلاً عن ذلك فإن فرنسا تتولى تدريب العديد من الضباط والملاكات العسكرية الخليجية في فرنسا[٣١] .

وقام العديد من المسئولين الفرنسيين بزيـارات إلى منطقـة الخليج العربي[٣٢] ، بهدف الترويج للسلاح الفرنسي، وعقد صفقات تسليحية مع دول المنطقة, ومنها زيارة وزير الدفاع بيار جوكس إلى الإمارات في الحادي عشر من مايو (آيار) ١٩٩١م[٣٣] , وزيارة رولان دوما إلى عدد من الدول الخليجية لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية, وبيع أسلحة لاسيما لقطر والإمارات، كذلك زيارة بيار جوكس إلى السعودية، وزيارة وزير الدفاع فرانسوا ليوتارإلى عُمان, وزيارة جون كلش رئيس هيئة الأركان الفرنسية في مارس "آذار" ١٩٩٩م إلى قطر وعمان[٣٤] ، وزيارة وزير الدفاع ألان ريتشار في يوليو (تموز) ٢٠٠٠ إلى عُمان[٣٥] ، وذلك كله يعطي الانطباع عن التصميم الفرنسي على الحضور الفاعل في مجال التعاون التسليحي وإقامة علاقات وثيقة مع دول منطقة الخليج العربي .

إن السياسات التسليحية والأمنية التي تبنتها دول مجلس التعاون الخليجي وإنفاقها العسكري الكبير أدى إلى عجز في الموازنات العامة لهذه الدول[٣٦] .

خاتمة :-

إن التوجه نحو منطقة الخليج العربي أحد أهم توجهات السياسة الخارجية الفرنسية, ومواقف فرنسا من قضايا المنطقة إحدى وسائل تحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية والتجارية في المنطقة . ففرنسا تسعى لأن تكون سياستها في المنطقة متوازنة ومرنة من جهة, ومن جهة أخرى حاولت أن تنأى بنفسها عن النزاعات التي تحدث بين دول المنطقة لكي لا تبدو منحازة لأي طرف .

وشهدت العلاقات الفرنسية مع دول الخليج العربي تطوراً ملموساً في مختلف المجالات, وأبدت فرنسا اهتماماً خاصاً بمشاريع التنمية في دول الخليج العربي، وشجعت الاستثمار الخليجي في فرنسا, والاستثمار الفرنسي في الخليج العربي .

كما عملت فرنسا على زيادة نشاطها الثقافي والعلمي بهدف منافسة النفوذ الأمريكي في المنطقة, ومحاولة ترسيخ المصالح الفرنسية في الخليج العربي، لاسيما وأن فرنسا اختصت بتوظيف آليـات الجانب الثقافي في المجال السياسي .

فضلاً عن ذلك فقد سعت فرنسا إلى الوصول بمستوى علاقاتها الدفاعية والتسليحية والأمنية مع دول الخليج العربي إلى مستوى الشراكة, من خلال الاتفاقيات الدفاعية والأمنية صفقات الأسلحة الضخمة .

الدكتور ستار جبار الجابري

مركز الدراسات الدولية/ جامعة بغداد

الهوامش والمصادر

١ — مازن إسماعيل الرمضاني، الغرب والاتحاد السوفييتي، ندوة آفاق الاستراتيجية السياسية العربية، بغداد ١٩٨٦م، ص٢ .

٢ — جوزيف موينيهان، مجلس التعاون لدول الخليج العربي والولايات المتحدة الأمريكية — المصالح المشتركة وغير المشتركة، في أمن الخليج في القرن الحادي والعشرين، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط ١، أبوظبي، ١٩٩٨، ص٩٩ .

٣ — معارك باريس وواشنطن في الشرق الأوسط وأفريقيا، مجلة المجلة، العدد ٨٧٣، ٣ — ٩ (تشرين الثاني) ١٩٩٦، ص٣٤-٣٥ .

٤ — ينظر : موجز يوميات الوحدة العربية، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٩، مجلة المستقبل العربي العدد ٢٥٢، شباط (فبراير) ٢٠٠٠، ص٢٢٩ .

٥ — الرأي (الأردن)، العدد ٨١١٩، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٢ .

٦ — بشارة خضر، أوروبا وبلدان الخليج العربية الشركاء الأباعد، نقله إلى العربية حسن عبد الكريم قبيسي، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص٢٣٨—٢٤٠ .

٧ — أحمد خضر الزهراني، السياسة الخارجية الفرنسية تجاه منطقة الخليج العربي خلال عقد التسعينات، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد ٢٠٠١، ص٣٢٦-٣٢٧ .

٨ — بشارة خضر، المصدر السابق، ص٢٥٦—٢٥٧ .

٩ — بابل، ٧ أذار ١٩٩٩ .

١٠ — بابل، ٨ حزيران ١٩٩٩ .

١١ — الاتحاد، أبوظبي، ١٢ آيار (مايو) ٢٠٠٠ .

١٢ — بشارة خضر، المصدر السابق، ص٢٥٦—٢٥٧ .

١٣ — أحمد خضير الزهراني، المصدر السابق، ص٣٢٨ .

١٤ — بشارة خضر، المصدر السابق، ص٢٥٦—٢٥٧، كذلك : بابل، ٦ أذار (مارس) ١٩٩٩ .

١٥ — بشارة خضر، المصدر السابق، ص٢٥٦ .

١٦ المصدر نفسه ص٢٧٦ .

١٧ – أحمد خضير الزهراني، المصدر السابق، ص٣٣٢ –٣٣٣ .

١٨ – المصدر نفسه، ص٣٣٤ .

١٩ – لمزيد من التفاصيل ينظر : بول بالطا وكلودين ريللو، سياسة فرنسا في البلاد العربية، ترجمة كامل فاعور ونخلة فريفر، دار القدس، بيروت، ١٩٧٢، ص١٥٧–١٦٥ .

٢٠ – أحمد خضير الزهراني، المصدر السابق، ص٢٤١–٢٤٢ .

٢١ – بابل، ١٣ أيلول ٢٠٠٠ .

٢٢ – بابل، ٤ كانون الأول ٢٠٠٠ .

٢٣ – أحمد خضير الزهراني، المصدر السابق، ص٢٩٧–٢٩٨ .

٢٤ – بابل، ٨ حزيران ١٩٩٦ .

٢٥ – الثورة، ٢٦ تشرين الأول ١٩٩٨ .

٢٦ – الرأي (الأردن)، العدد ٨٩١٦، ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٥ .

٢٧ – بابل، ٢٦ تشرين الأول ١٩٩٨ .

٢٨ – ينظر : يزيد صايغ، الصناعة العسكرية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣ .

٢٩ – أحمد خضير الزهراني، المصدر السابق، ص٣٤٥ .

٣٠ – المصدر نفسه، ص٣٥٧ .

٣١ – المصدر نفسه، ص٣٦٠–٣٦١ .

٣٢ – أشرنا فيما تقدم إلى العديد من هذه الزيارات سواء للرئيس جاك شيراك أو عدد من الوزراء الفرنسيين .

٣٣ – بابل، ١٢ أيار ١٩٩١ .

٣٤ – أحمد خضير الزهراني، المصدر السابق، ص٣٦٥ .

٣٥ – بابل، تموز ٢٠٠٠ .

٣٦ – شمة بنت محمد بن خالد آل نهيان، تداعيات حرب الخليج الثانية على قضايا الأمن السياسي والاجتماعي داخل مجلس التعاون الخليجي، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٤٦، آب (أغسطس) ١٩٩٩، ص٥٥–٥٦ .

ويزرع الحياة، ويزيل آثار دهر طويل من الجمود أعاق حركة الوطن وبدد طاقاته، فلم يعد قادراً على مواكبة العصر، ومجاراة الأمم . من هذه الربوع بدأت المسيرة المباركة أولى خطواتها في مضمار البناء والتعمير، والتحديث والتطوير، مفعمة بالعزم والأمل, متوهجة بالجد والعمل، غايتها الكبرى بناء دولة عصرية، وهدفها الأسمى تحقيق الأمن والرخاء والازدهار .

لماذا كانت البداية من صلالة؟

وماذا تمثل هذه المنطقة؟

وما عمقها الحضاري، في ضوء حداثتها الحاضرة؟

وماذا يقول العلم عن احتوائها لقوم عاد وثمود ومدينة إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد؟

وإلى أي حد تبوح الآثار بالكثير من الأسرار؟

أما قبل . .

ساعة أن نهبط في الغلاف الأرضي لظفار، إذا كنت محلقاً بالطائرة أو قادماً بالسيارة, فإذا ببريق تلامسه عيناك في النظرة الأولى، والتي تستدعي منك أن تتمهل لتتأمل فتتجمل, إذا كنت من الكاشفين للجمال, والمكتشفين للأناقة, والعارفين بالأسرار .

ثمة نور حضاري لا يزال حياً، ومصدره أصداء تلاقي حضارات الشرق القديم، على شفاه هذه المدينة، يناديك إذا كنت من الباحثين عن الحقيقة، ويناجيك إذا كنت قد جئت لقضاء بعض من الوقت، بعيداً عن توحش

التكنولوجيا العصبية، لتلتقط أنفاسك على صدر الطبيعة المغلفة بجماليات لم يطمسها إنس ولا تكنولوجيا، والمغلفة في أكمام تتفتح رويداً رويدا، وبشروطها هي، ولكن عليك أن تحدد خطواتك فيه، أتريد التاريخ وشواهده؟ أم الجغرافيا بمشاهدها؟ أم الحداثة بتداعياتها؟ أم الجمال بجلاله؟ أم الإنسان بظلاله، وهو الأصل والفصل والوصل؟ أم أنك تريد كل أولئك؟ .

وأبداً . . لا يمكن لهذه العطاءات الربانية، في هذه القطعة من أرض الله الواسعة، إلا أن تكون رسائل تشف عن الماوراء، يتلقاها من يسبح في المُلك، ويطوف في الملكوت، ولابد أن تأخذها على محمل التأويل .

الجبال الصلدة التي هي في الأصل تمر مر السحاب، يراها الفؤاد وقد زالت عنها الوحشة، واحتجب عنها التوحش، لتصبح مستأنسة باخضرارها واتساعها وامتدادها وإغراءاتها، حتى تخفض جناحها للزائرين في روعة ألوانها الخضراء، وعيون الماء المنسابة في نافورات وتشكيلات تلقائية يحنو عليها البحر حين يخشع هيجانه وتستلقي موجاته على الشواطئ، فتتحدر ثم تتخدر ثم تستسلم وتسلم .

رذاذ المطر اللاعصبي يتحول إلى خيط يربطك بالماوراء، يجعلك في حوارات متصلة ومتقطعة، تحتويك بأنك موصول بأسباب السماء، لست وحدك هذا مؤكد .

أشجار اللبان، وهامات النارجيل، وقدود النخيل تشمخ في اللامحدود، سامقة هي، شاهقة هي، مثمرة هي، تسديك طيباتها جنية، وهي أكبر من مجرد ثمار يانعة، وفواكه مما تتخير، إنها رموز طبيعية، وعناوين تاريخية وسلاسل حضارية، لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكورا للمنعم البديع ذي الجلال والإكرام .

الجذور من الواقع المنظور

"لا نمو بدون جذور" هذه حقيقة، كما جاء في حديث السلطان قابوس بن سعيد لدورية "ميدل إيست" — لندن ١٩٩٤ — . والبحث عن الجذور يكشف عن كنوز معرفية ونبوءة مخبوء في ضمير الغيب، تطفئ الكثير من علامات الاستفهام، وتهدئ من روع علامات التعجب بما يتكشف من أسرار تومض وتختفي، وبما ينكشف من إصرار على التمديد الحضاري والامتداد في الحاضر . والجذور هي أحد المفاتيح الكبرى لعمان الحديثة، وقد كانت مستغلقة على الانفتاح بعضاً من الوقت . ولنبدأ بـ (الجذور) لكن العودة إلى الجذور، تنطلق من الواقع المنظور، لاسيما أن التداخل في الأزمنة يشكل نقطة ارتكاز في الرؤية العمانية المعاصرة . لا يستغرقنا التاريخ في حد ذاته، بقدر ما تعنينا دلالاته، وصولاً إلى اللحظة الحاضرة، والتي بدورها تتبادل الكشف معه، تأثيراً وتأثراً، في علاقة عضوية ذات أنسجة متداخلة، وخلايا متشابكة . وفي هذا السياق يؤكد علماء التاريخ, أننا ندرس الماضي لنفهم الحاضر, وندرس الحاضر لنستطيع توجيه المستقبل، فالتاريخ هو سياسة الماضي، وعلى ضوء هذا القول يكون الحاضر جزءاً منه، لأنه نتيجة وثمرة للسياسات الماضية، وعلى أساس من فهم الحاضر وسياساته واتجاهاته، يمكن تصور المستقبل وحسابه وتوقعاته . وهذا ما يسمى بالتخطيط للمستقبل . وعندما يتم التخطيط لبلد ما خلال الخمسين سنة القادمة، فإن ذلك يعتبر مقدماً تاريخ هذه الخمسين سنة القادمة أو، على الأقل، رسم مسار التاريخ القادم خلال هذه الفترة كما يراد له أن يكون . (كما يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه "الحضارة"، ص٧١، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٨) لكن التاريخ وحده لا يكفي، إذ أن الجغرافيا هي صانعة التاريخ، وهي الحقيقة الثابتة في كل التواريخ . يتغير الزمن بتدفق تيار التحول

الإنساني، فتصير وقائعه من حال إلى حال وتستحيل قراءة التاريخ . أي تاريخ بمعزل عن الأثر الحاكم لعامل الجغرافيا في صناعة وقائعه، على حد تعبير (محمد حسنين هيكل، مصر والقرن الحادي والعشرون، ص٥، دار الشروق، القاهرة) . ولقد أراد جلالة السلطان قابوس بن سعيد، أن يدخل عمان إلى قلب التاريخ المعاصر، الذي توارت خلف أستاره بعضاً من الوقت بفعل ظروف خارجة عن الإرادة، ليعيدها أفضل من سيرتها الأولى، وبروح العصر .

كان السلطان قابوس ومنذ البداية، واعياً وعياً فلسفياً لدور التاريخ وأهميته وحركته كعنصر فعال في بناء الشخصية العمانية، وتعميق الشعور بالانتماء الوطني، والربط بين الماضي والحاضر والمستقبل في منظومة متناسقة، فأراد أن يزرع في نفوس العمانيين الثقة والأمل، وينزع منها الخوف والجزع، والإحساس بتناثر الذات وتمزقها . إنه يقول : كان لزاماً علينا أن نبتدئ من الأساس ومن واقعنا، وهذا الأساس هو الشعب في عمان وقد سلكنا مختارين أصعب السبل لنخرج به من عزلته ونأخذه بعيداً إلى طريق العزة والكرامة، وفي نفس الوقت تحملنا مسئولية حمايته من التمزق والضياع، وإحياء حضارته، واستعادة أمجاده، وربطه ربطاً وثيقاً بالأرض، ليشعر بعمق الوطنية، ومدى التجاذب بين الإنسان العماني وبين أرض عمان الطيبة . (خطب السلطان قابوس بن سعيد، ١٨ نوفمبر ١٩٧٢م) .

ظفار في عيون المؤرخين

يذكر أبو الجغرافيين "الإدريسي" أن ظفار كانت محط أنظار الغزاة . وقد تعرضت عام ١٢٦٥م لغزو دمرها ثم أعيد بناؤها باسم "المنصورة"، وهي المدينة التي عرفت في العصور الإسلامية باسم "البليد" كما يذكر المؤرخ العماني المعروف ابن رزيق، لكن المسألة في نظر المحللين ليست مسألة احتلال أو

تبعية، إنما، كما هو معروف، فإن أية بؤرة غنية وثرية وسط منطقة صحراوية قاحلة، تعد مصدراً للأطماع .

ويتعرض الرحالة الشهير "ماركو بولو" في عام ١٢٨٥هـ لازدهار ظفار وثرواتها، ويقول أنه كانت هناك حركة ملاحية بينها وبين الهند، وكان التجار يحصلون على أعداد كبيرة من الجياد العربية، ويحققون أرباحاً وفيرة، وكانت المدينة تتبعها قرى عديدة، وهناك يتم إنتاج الكثير من اللبان الأبيض .

والرحالة العربي المعروف "ابن بطوطة" يروي وصفاً لظفار في القرن الرابع عشر فيقول : إن أسواقها من أكبر الأسواق وكانت مشهورة بالأسماك والفواكه . ويقول عن أهلها إنهم "متواضعون، مهذبون، مستقيمون، ودودون للغرباء، ثيابهم من القطن المستورد وهم يربطون "سارونج" على وسطهم بدلاً من السروال، ويستحمون عدة مرات في اليوم الواحد وفيها الكثير من المساجد، وبكل مسجد مقاصير خاصة بالوضوء، ووصفها "ويندل فيليبس" بأنها "جنة المناظر الخضراء" .

ويقول "برترام توماس" عن رحلته من صحار عبر الربع الخالي إلى الإمارات عام ١٩١٠م والذي ضمنها كتابه "البلاد السعيدة" : "إذا كانت هناك منطقة في شبه الجزيرة العربية تصدق عليها هذه التسمية، (يقصد البلاد السعيدة) إذا استثنينا اليمن بأمجاده التاريخية . فهي بحق المنطقة التي تسمى ظفار. والتي تشكل في مجموعها خميلة من الغابات الخضراء التي تفترش المرتفعات الجبلية المطلة على البحر، والجداول الرقراقة والحقول السندسية والسهول التي ترصع أديمها الأشجار والنباتات والأعشاب" . (فاروق خورشيد، في بلاد السندباد، ص٤٢٦، دار الهلال ١٩٨٦م) .

والاخضرار هبة طبيعية في صلالة وظفار كلها، وما "مهرجان الخريف" الذي تقيمه محافظة ظفار كل عام، إلا استثمار عصري لهذه المنحة الإلهية

التي اختص الله تعالى بها ظفار دون سائر مناطق الجزيرة العربية والمنطقة في عمومها، واستطاعت صلالة أن تجعل مهرجان الخريف قادراً على أن يسوق نفسه بنفسه، بما تتمايز به الطبيعة في صلالة، في هذه الآونة بالذات حيث تختلف عن أية منطقة في الخليج ببرودة أجوائها وهطول الأمطار فيها، واللون الأخضر الذي يكسوها ويحولها إلى روضة تسر الناظرين، في وقت تعاني فيه المنطقة من الطقس الحار اللافح، وهذه هبة من الله تعالى للمنطقة الجنوبية في سلطنة عمان .

عطر الشرق وجماليات المدنية

صلالة لها في التاريخ مكانة عالية، ولها على الجغرافيا مكان مميز، هي كنز الجمال الطبيعي الجميل . حباها الله تعالى هبات كثيرة وثرية، فانعكست ظلالها على الإنسان والزمان والمكان في هذا الجناح الجنوبي من عمان الذي يجمع بين عطر الشرق العريق وجماليات المدنية الحديثة، فاتخذت صلالة خصوصية غير مألوفة . هذه الخصوصية جعلت الكتاب المعاصرين يصفونها بأنها جنة المناظر الخضراء، ليتواصلوا مع المؤرخين والجغرافيين والرحالة القدامى في رؤيتهم لهذه المنطقة العمانية ذات العمق التاريخي والحضاري حيث ساهمت هذه المنطقة في تشكيل مساحات واسعة من الحضارة العمانية في العصور القديمة والوسيطة كما شاركت بدور ملحوظ في تاريخ عمان المعاصر لاسيما القريب منه . فمن صلالة انطلق نداء النهضة جامعاً كل أبناء عمان داعياً إياهم للانطلاقة الكبرى نحو التغيير معلناً للعالم أجمع "فاتحة عهد جديد" غير مجرى الحياة في عمان .

يروي حفيظ الغساني في مذكراته حين أوشكت شمس يوم الخميس الثالث والعشرين من يوليو ١٩٧٠م على الغروب فإذا الناس في شوارع صلالة يهرولون

في كل اتجاه هاتفين "قابوس حكم . قابوس حكم" وبعد دقائق انفتح باب "قصر الحصن" لتتدفع جماهير الناس إلى الداخل يبايعون جلالة السلطان قابوس وما هي إلا ساعات قليلة حتى طار النبأ الجديد إلى كل أنحاء الدنيا، وعمت الفرحة كل جنبات عمان من أقصاها إلى أقصاها، وبدأت معركة البناء والتعمير في كل الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على صعيد العمل الداخلي وعلى المستوى الخارجي . هذه هي صلالة التي تسكن في حنايا قلب واحد من أبنائها، هو شاهد على التحولات العمانية الكبرى، وعلى عصر من التنوير والتعمير والتطوير، تتعاظم فيها مشاهد البناء والرخاء والوفاء، يتجاور السهل والجبل، تتحاور الصحراء والاخضرار، يتعالى هدير المصانع وتلقائية الحرف اليدوية، ويتناغم حداء سفين الصحراء مع الأمواج حين تجوبها أشرعة الصواري، وتتمازج أصالة المأثورات التقليدية مع حداثة الفنون .

روحانيات النبي داود

لحظات اختراق لأعنف الجبال في ظفار طريق عملاق لا يعبأ بالصخور، إنما ينساب، ولك أن تتخيل مدى الجهد والمال الذي بذل من أجل تعبيده، تظل السيارة تعانق الطريق مثلما تعانق العيون مساحات الخضرة الممدودة، وتستقبل رذاذ المطر الحاني ووشوشات النسيم الكريم في عطاءاته، وهمهمات الهواء النقي في هفهفاته، واحتضان الشواطئ لموجات البحر التي تهفو إلى الراحة هي الأخرى . تصاعد السيارة، لتخشع وهي تدنو من ذلك المكان العلوي . لماذا؟ يرق جبل "أتين" الذي يتلطف سهلا، يدثر المكان بشيء من الرهبة، ويشي بروح ديني ينفح الزائر بمسحة من الشجن، أشجار كثيفة، دوحة من الجمال، وهالة من الجلال تنبعث من قبر نبي الله "أيوب" عليه

السلام . الجسد مسدى متمدد في ضريح بسيط لا يرتفع عن الأرض إلا قليلاً . تتناثر حواليه بعض الكتب وحمالات للقراءة، وآيات كريمة تشرق في جنبات المكان، وأضواء خفية خفيفة، ودعوات تبتهل بها نفوس الزائرين وتتجلى في النفس القيمة الكبرى لصاحب المكان عليه السلام (قيمة الصبر والتحدي) .

"وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين" . تتجلى هذه الآية الكريمة عنواناً لهذا المشهد، ويدخل معنا فيه أيضاً الكاتب فاروق خورشيد، الذي زار هذا المكان وقدم رؤيته وشهادته وانطباعاته وأحاسيسه إزاء المكان وصاحبه، في صورة من الأدبيات الفنية، وهو الذي قدم منذ ربع قرن مسرحيته عن النبي أيوب وتتبع شخصيته في كل المصادر واستهواه موقف التحدي الذي وقفه أيوب من رهان الرب مع الشيطان حين ذكر الشيطان أن أيوب عبد صالح لأنه غني، ولأن الله أعطاه كل ما يشكره عليه ويعبده من أجله، فكان الابتلاء والامتحان وكان التصدي والتحدي، ثم كان الصبر والنجاح والانتصار .

(قال الرب : لي عبد صالح في أرض "عوص" تبرأ وخلص، صافية نفسه، فكان نعم العبد الصالح . قال إبليس : ما عبدك إلا لنعمك عليه فأطلق يدي أدمر ما أنعمت به، ستراه يكفر . قال الرب : فأطلق يدك ولن يكفر أيوب، فأيوب صابر صالح .

وانقضت الصواعق تحرق مخازن الغلال وأشجار الفاكهة ومزارع الكروم والخضرة، وصبر أيوب، ورفع كفيه ضارعاً للرب وقال : أنت أعطيت، وأنت أخذت، والحمد لك فيما أعطيت وفيما أخذت، تقدس اسمك وتقدست آلاؤك . واهتزت الأرض زلازل فدمرت المساكن العامرة، ومات تحت أنقاضها الأبناء والبنات قرة العين وأمل الفؤاد، ومعنى أن يكون للإنسان وجود على الأرض . انهارت الجدران الصلبة، فتحطمت تحتها الأجساد الرخوة، وضاع معنى

الوجود نفسه، حين ضاع أبناء أيوب حين رفع كفيه للرب وقال : ما كان الأولاد إلا منحة منك، فحين جاءوا كانوا درة نعمتك . وحين ذهبوا كانوا اختبار طاعتك . فالحمد لك فيما أعطيت وفيما أخذت . تقدس اسمك وتقدست آلاؤك . وهبت الريح الصرصر السموم، تحمل الجراثيم والموت، وانقلبت الماشية ترفع أقدامها مستسلمة إلى الموت المخيف المنتشر العاتي، ألف ألف بقرة، ألف ألف ناقة، ألف ألف كبش ونعجة وعنزة، اجتاحها الموت الزاحف، وشرعت عيون صماء إلى السماء، وتعفنت جثث كانت تحمل الثروة والجاه، وضاعت الثروة وضاع الجاه . ورفع كفيه ضارعاً للرب وقال : ما الأبقار والأغنام والإبل إلا رمز رضاك . فإن منحته لي فالحمد لك، وإن أخذته مني فالحمد لك . يرتفع الإنسان وسط الناس بما أعطيت، وينخفض قدره بما أخذت . ولكن الإنسان أمامك هو هو . الحب لك، والشكر لك، والرضا والقناعة بما أعطيت وأخذت . أنت أعطيت، وأنت أخذت، والحمد لك . تقدس اسمك، وتقدست آلاؤك . وزحف العفن إلى الجسد فشاخ بناؤه، انحلت الأعضاء والعظم وهن، والقروح ملأت الجلد واللحم، وتقيحت حتى نفرت الزوج والصحاب، الطعام يحمل إليّ عذابي، فلا آكله خوف التعاسة والألم، خبزي عذابي، وحنطتي شقائي، وجرعة الماء هول يمزق جسدي، والدود يقفز مني إيذانا بأن الجسد ضاع، ولا نهاية لهذا العذاب المقيم . من أنا حتى ترزح بعذابك عليّ . من أنا حتى تأكلني بقوتك . من أنا . وما أنا يا رب الوجود العظيم . تقدس اسمك وتقدست آلاؤك . وهب أهل عوص، وقالوا كفر أيوب، فحق عليه النفي من الأرض النقية التي لا تعرف إلا الصالحين، ملعون مطرود هو، مشرد، فقد رفع صوته على الرب، ورفع أصبعه إلى السماء . وضحك إبليس ضحكة الانتصار وقال : ضاع أيوب وكفر، حين ضاعت منه نعمتك وسلبت عنه عطاياك . تقدس الرب وعلا، فكلمة الرب هي العليا، أيوب عبد صالح، وما كلمات أيوب إلا الصدق، فما كفر وما عصى، وإنما اشتكى وتضرع، غفر الله لأيوب،

فارفع نقمتك عنه، فقد حوته الرحمة الكبرى والغفران الأعظم، وما عصى . لبيك نبي الله لبيك . ثم لبيك نبي الله لبيك .

إن هذه الأرض هي أرض "عوص" التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس، هذه أرض توحي وحدها معنى الصراع إلى القمة، وتثبت للإنسان معنى الخلود في مواجهة القمة، فهنا يلتقي الإنسان بالقمة، هنا يعرف الإنسان معنى التحدي، وهنا ينطلق الإنسان . فهنا معنى الحب المطلق، وهنا العذاب المطلق، ثم هنا الإيمان المطلق، أنا أحس فأنا أفهم، أنا والأرض اتحدنا، كما اتحد بها من قبل أيوب، فأخرج كلماته، وسرقها وسرقه كله من سرقوا تراثنا وادعوه لأنفسهم . فأيوب من هذه الأرض، وهذه أرض "عوص"، أنبتت هذه الرؤية العظيمة المتسعة للحب، كما امتدت عظيمة متسعة خضراء .

وبعد أشهر من هذه الزيارة كان الكاتب فاروق خورشيد في صنعاء، وفي منزل الدكتور عبد الكريم الإرياني، كانا يتحدثان عن سرقات اليهود لتراثنا كله . وحكي له هذه التجربة الروحية الفذة، وإذا بالدكتور يوسف عبد الله رئيس قسم الآثار بكلية آداب صنعاء، وعميدها السابق يقاطعه قائلاً : "عجيب ما تحكي لقد زار المستشرق (بري) عالم الآثار البريطاني، المنطقة الجنوبية كلها، ووقف عند الدلائل العلمية والحفائر التي تؤكد ما ذهبت إليه بتجربتك الصوفية هذه، وألف كتاباً عن هذه المنطقة أسماه "أرض عوص" (فاروق خورشيد في بلاد السندباد، ص٤٢٦، دار الهلال ١٩٨٦) .

أغلى من الذهب والنفط

وفي هذه الأجواء تتجلى شجرة اللبان، التي تتجاوز مجرد كونها شجرة نباتية، لتصبح رمزاً كبيراً تاريخياً واجتماعياً وجغرافياً وحضارياً، تتمايز به هذه المنطقة من العالم . وكم جرت محاولات علمية لاستزراع هذه الشجرة في

مناطق أخرى غير صلالة، لكنها باءت بالفشل . في ظلال شجرة اللبان تتوارد إلى الخاطر، أشياء كثيرة، ومفاتيح للفهم، ومحاولات لكشف الأسرار وإيجاد التناغم بين العلاقات وتجارب لفك الرموز . على مرأى من البصر، وفي سياق الحديث عن أسرار اللبان، تحدثك آثار مدينة "خور روري" أو "سمهرم" التي تعود إلى فترة الألف الأولى قبل الميلاد، حيث تتمتع هذه المدينة بفن معماري جميل من الحجر الجيري، وهي تقع على الشاطئ الشرقي لشرم صغير على الساحل، وعلى بضعة كيلومترات إلى الشرق من سهل صلالة، والمدينة محصنة بسور من الحجارة المتراصة بصورة محكمة، وقد تم الكشف فيها عن خمسة أحجار كتب عليها بالأبجدية العربية الجنوبية، وتصف تأسيسها، وأنها بنيت لهدف رئيسي وهو تأكيد السيطرة على تجارة اللبان والبخور الذي يجمع فيها ويصدر إلى الخارج، كما تم الكشف عن آثار معبد قديم شيد في وسط الجانب الشمالي للمدينة، وقد عثر على جدرانه الثلاثة مع مذبحين، ووجد نحت لصورة ثور على أحد المذبحين، وهذا يدل في نظر العلماء على أن الإله الذي كان يعبد في المعبد هو إله القمر، لأن الثور يمثل في الديانة الحميرية إله القمر، كما وجد حول المذبحين آثار رماد للقرابين التي كانت تقدم عليها، وتشتمل على بقايا عظام الأسماك ومواش وطيور كالدجاج، وأيضاً بقايا قليلة من اللبان . ومن الأثريات التي تم العثور عليها في هذا الموقع تمثال برونزي صغير لفتاة هندية تعزف على الناي . وتكمن أهمية التمثال في وجوده في الموقع حيث يعتبر دليلاً على وجود علاقات تجارية بين الهند والجزيرة العربية . كما عثر أيضاً في نفس الموقع على مجموعة من القطع النقدية البرونزية البالغ عددها أربع عشرة قطعة، بالإضافة إلى جرس برونزي يحمل اسم إله المدينة . ولما كان اللبان السبب الأكثر بروزاً عبر التاريخ في شهرة محافظة ظفار، فقد شغلت ظفار مساحة حضارية هامة في التاريخ القديم، بحكم كونها مصدراً أساسياً لهذه المادة إلى جانب الصمغ حيث كانا في مقدمة السلع التي حظيت

باهتمام كبير في تجارة العصور القديمة مما أثار اهتمام المؤرخين الأوائل منذ عام ٤٠٠ قبل الميلاد، بداية من "هيرودوت" ثم "بيليني" و "بطليموس" وانتهاء بـ "استرابو" و "ديودورس" وجميعهم قد تركوا انطباعاً عن أهمية اللبان والصمغ في تجارة العالم القديم، وأن الطلب على اللبان كان لا يضاهيه الطلب على أية سلعة أخرى . وقد توصلت الدراسات المسحية التي أجريت في ظفار، إلى أن اللبان كان ينقل بالبر والبحر لأنحاء متفرقة من العالم القديم، وكان ميناء راس فرتاك (جبال القمر) هو الميناء الذي يجمع منه المحصول للتصدير إلى اليمن، ونحو مناطق متفرقة أخرى من آسيا عن طريق ميناء (عدن)، أما الطريق البري فقد كان يبدأ من غرب ظفار عن طريق (نجد) إلى جنوب الجزيرة العربية، ثم شمالاً إلى (نجران) وحتى (غزة) .

ولم يكتفِ العمانيون بتصدير اللبان وإنما صنعوا منه البخور بعد إضافة الشحوم إليه، نظراً لحاجة المجتمعات القديمة إليه في الطقوس الدينية، وفي العلاج والتطبيب . وشكل هذا المنتج أهمية كبيرة في حركة التجارة خلال العصر الحجري الحديث (عمان في التاريخ، ص١٠٠) ونقرأ عن هذه البلاد - كما جاء في سفر التكوين - حدد الرب مناطق العالم ذاكراً أنها تبدأ شرقاً من جبل سفار (أي ظفار) وإلى هذه البلاد جاء المصريون القدماء، بحثاً عن اللبان ليستعملوه في تحنيط فراعنتهم، وربما كانت أعمدة النبي سليمان مدفونة بمكان ما في هذه المنطقة، هذا إذا لم تكن ظفار هي نفس الجنة التي ورد ذكرها في التوراة، والسوق الثقيلة لتجارة العاج وريش الطاووس قديماً .

يعتبر الباحث عبد القادر بن سالم الغساني من أول الباحثين في هذا المجال بكتابه (ظفار أرض اللبان) ويذكر من تاريخ الإسكندر الأكبر أنه أخذ من أرض العرب المنتجة للبخور كمية من البخور لإحراقها للآلهة تقرباً إليها، ثم يذكر عددا من الحوادث تؤكد وجود علاقات منظمة بين البطالمة وبين بلاد

اللبان والبخور، وخيبة هذه الحملات وتعثرها إذ يقول : "لقد كان البخور أو اللبان رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة . في ذلك العهد كان سعره يساوي سعر كل من الذهب والبترول في أيامنا هذه . ولم يكن يشتريه لغلائه هذا إلا رجال الدين لاستعماله في الشعائر الدينية التي تستنزف القسم الأكبر منه والملوك والأثرياء، لحرقه في المناسبات الدينية وفي اجتماعاتهم" .

ويقول عبد القادر الغساني حول طرق التجارة : "وكان اللبان من أهم المواد التي تاجر بها العرب الجنوبيون، تاجروا بتصديره إلى بلاد الشام ومصر والعراق، وقد أشير في التوراة إلى قوافل سبأ، وهي قوافل كانت تسير من العربية الجنوبية مخترقة العربية الغربية، إلى فلسطين فتبيع ما تحمله من سلع هناك, وقد كان السبئيون يسيطرون على العربية الغربية حتى بلغت حدود مملكتهم أرض فلسطين" .

وقد سارت حكومة سبأ على سياسة التوسع التجاري، وهذا التوسع يقتضي السيطرة على الطرق، بذلت جهدها لبسط سلطانها على الطرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها، وبعد استيلائها على بقية الحكومات العربية الأخرى وضعت الطرق الجنوبية المؤدية إلى أرض اللبان والمواد الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية، وإلى الموانئ والمرافئ التي تتاجر مع أفريقيا والهند وتستورد منها السلع النفيسة الثمينة تحت نفوذها وحكمها فحسنتها وشقت طرقاً جديدة لأغراض حربية واقتصادية وبلطت بعض المواقع فيها لتقاوم السيول والأمطار وأحكمت جوانبها وحصنتها بالحجارة الصلدة حتى تقاوم السيول التي تنحدر من المرتفعات على هذه الطرق فلا تلحق الأذى بها . ويذكر الغساني أن طريق اللبان هذا كان يصل إلى غزة، وأن أول من استخدمه كانت الملكة بلقيس في رحلتها إلى الملك سليمان . ورغم تداخل الأسطورة بالحقيقة فإن الطريق البري حقيقة واقعة زادت من هذه الروابط التي مزجت حضارات

الجزيرة بعضها ببعض كما مزجت العطاءات الحضارية الأخرى التي عرفها أبناء الشمال من احتكاكهم بحضارات الشمال وبلاده، بالعطاءات الحضارية الأخرى التي عرفها أبناء الجنوب من احتكاكهم بحضارات الشمال وبلاده (عبد القادر بن سالم الغساني، في ظفار أرض اللبان، مسقط ١٩٨٤) وقد ارتبطت هذه المنطقة منذ القدم بالمعنى الديني الموحد الذي هو جوهر الديانات السماوية التي نزلت بأرض هذه المنطقة هادية ومبشرة ومقدمة المعاني الحضارية في دفعات متتالية تبدأ باليهودية وتنتهي بالإسلام، كما أنها ارتبطت بما سبق هذه الديانات من محاولات إنسانية لمعرفة الله وعبادته عبادة قاصرة، ولكنها جادة في محاولات الاهتداء، إلى معنى الوجود وروح الحق ومن هنا كان الارتباط بين مصر الفرعونية وأرض اللبان ومعنى هذا علاقات مستمرة في التجارة والثقافة معاً، وعلاقات متبادلة في المصالح والأفكار معاً .

صوته لا يزال حياً !

حديث الآثار هو حديث مثير، بشفافيته وغموضه، يغري على البحث والتقصي ويستدعي التأمل والتمهل، ويدعو إلى التعجب والإعجاب، فأنت مع التاريخ بأسراره وآثاره، وحركاته وسكناته، وهيبته وحكمته، وبمصاحبة الجغرافيا السياسية والطبيعية بشواهدها ومشاهدها، إذ لا يمكن إلا أن يقترن التاريخ بالجغرافيا بالناس والمجتمع . تتعمق صلاته ببعدها التاريخي وشواهدها العريقة وآثارها العتيقة مثل (البليد) هذا الموقع الأثري الذي تحيط به المياه مع جدار كامل بأبواب وسراديب ويوجد فيه فلجان متوازيان يجريان باتجاه البحر، وهناك مبان تاريخية تضم مسجداً وقصراً ومنازل ومزارات ثم (متحف صلالة) الذي يشكل جزءاً من التراث القومي، ويضم مقتنيات من الأعمال الأدبية وأحجاراً عليها كتابات قديمة، كما توجد من بين المقتنيات

مجموعة من العملات ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، إضافة إلى فخاريات تعود إلى العصر الوسيط، ومخطوطات ووثائق تاريخية، وهناك قبر النبي أيوب، ويقع داخل مبنى صغير تزينه قبة فوق سهل (أتين) تصل إليه عبر طريق عملاق معبد، تحيط به الروابي الخضراء ، وتنتشر حواليه البساتين وفيها (سمهرم) التي تشتهر بمينائها البحري الذي يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد . وقد أسفرت أعمال الحفر والتنقيبات عن وجود عملات ومخطوطات باللغة العربية، كما تضم (خور روري) الذي يشتهر بمناظره الطبيعية، وبه ضريح ابن علي، وميناء صلالة، وكثير من الحدائق والمطاعم، وحصن مرباط، وشاطئ المغسيل المشهور بنافورات المياه الطبيعية، وريخوت بمنعطفاتها، ثم (شصر . إرم) التي يعتقد بأنها موقع المدينة الضائعة (إرم ذات العماد) وتجمل بمناظر رائعة لشلالات المياه والبحيرات والجبال والكهوف والحياة البرية والخضرة التي تغري السائح إغراءً طبيعياً لزيارتها .

حتى لا تختلط الحقائق بالأساطير

لا تنظر الرؤية العمانية إلى رصيدها الأثري على أنه فقط حفريات، وشواهد على الماضي البعيد، ومشاهد من التاريخ العريق بل هي أبعد من ذلك، بمعنى أنها استثمار سياحي على المدى الطويل - إذا جاز التعبير - وعناوين حاضرة محملة بحضارة دالة على التواصل والاستمرار .

المصدر الأساسي هو فكر جلالة السلطان قابوس بن سعيد، وفي بعده الأثري والثقافي والتاريخي على وجه التحديد، يوم أصدر التعليمات بتشكيل لجنة وطنية للإشراف على قسم الآثار في السلطنة، يرأسها معالي عبد العزيز بن محمد الرواس مستشار جلالة السلطان للشئون الثقافية، وزير الإعلام السابق .

تلكم كانت النواة العلمية، لعمل يتدثر برداء العلم، ورؤية تتخذ من البحث منهاجاً وأسلوباً، وصولاً إلى نتائج دقيقة، خاصة أن الحقائق تختلط بالأساطير، وإن كانت الأساطير رموزاً تعبيرية وتصويرية إزاء مواقف من الحياة والكون . وعلى مستوى الخريطة الأثرية للسلطنة، تجلت المعالم والملامح في أكثر من ٥٠٠ قلعة وحصن وبرج، تنتشر في كل جنبات عمان، بدأت كتحصينات عسكرية واستحكامات حربية، وأصبحت الآن تشكيلات جمالية ووحدات معمارية يحاول خبراء الآثار أن يستنطقوها لتبوح لهم بأسرارها، ترسل الكثير من القيم النابعة من هذا (الماضي) الأثري إلى (الحاضر) العماني، حتى أن منظمة اليونسكو ضمت بعض هذه الآثار إلى قائمة التراث الإنساني . كانت اللجنة هي بداية البحث العلمي في مجال البحث الأثري والتاريخي في محافظة ظفار، وإن كان ثمة جهود، جاءت في صورة أبحاث متفرقة منذ عام ١٩٨٩م وأعمال أولية قامت بها بعثة "ترانس أريبيا" ابتداءً من عام ١٩٩٠ وفي عام ١٩٩٢ طيرت وكالات الأنباء نبأ هاماً، أقام الدنيا ولم يقعدها بعد في مجال الآثار، وكان مصدره البعثة الأمريكية التي كانت مكلفة بالتنقيب عن الآثار . فقد اكتشفت بقايا مدينة غائصة في رمال الصحراء العمانية في محافظة ظفار، وأن هذه المدينة تتميز بأعمدتها العالية وأسوارها الضخمة، وأن الظن يتجه إلى الترجيح بأنها مدينة "إرم ذات العماد" التي ورد ذكرها في القرآن الكريم . وكانت البعثة الأثرية قد استعانت بمجموعة من صور الأقمار الاصطناعية التي التقطتها في صحراء الربع الخالي .

مدينة "إرم ذات العماد"

والذي حدث أن المسح الذي تم في عام ١٩٩٠م أثبت وجود ما لا يقل عن ثلاثة أنواع من الفخار، تم اكتشاف جدار سمكه ٩٠ سنتيمتراً وارتفاعه ٥٠

سنتيمتراً، جاء بعده اكتشاف آخر لبداية (برج) أعقبه اكتشاف برج آخر في الزاوية الشمالية الشرقية، وكونت جميعها – أي الأبراج – جزءاً من بناية هائلة، ثم تم اكتشاف بقايا طوب سقط من السقف ليجيء اكتشاف البرج الثالث في شكل مربع، كما اكتشف عدد من الغرف يبدو أنها بنيت في أزمان لاحقة، وتمكن المكتشفون – في حينه – من تنظيف صحن القلعة وبقايا باب المدخل الرئيسي، بعدها تم اكتشاف البرج الرابع على شكل حدوة حصان، ومن بعده برجان آخران، والمباني الرئيسية محاطة بسور كبير وهي عبارة عن عدد من الغرف الكثيرة .

كانت تلك هي المكتشفات الأثرية المعمارية تحت رمال منطقة (شصر) التي تقرر أن تكون مقراً للحفريات منذ السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٩٢ ومن عام ١٩٩٥ يتركز البحث حول دراسة هذا المبنى الضخم المحاط بأبراج المراقبة الستة. تصغي إلى البروفيسور يوري زارنز من جامعة ساوث وست ميسوري بالولايات المتحدة الأمريكية والذي يشارك في عمليات البحث والاستكشاف في منطقة شصر بمحافظة ظفار وهو يقول في بحث خاص حول هذه الاستكشافات : "استطعنا تحديد العصور التاريخية للمبنى من واقع الأدوات والأواني الفخارية والزجاج وأواني البخور، وتتراوح تواريخها من نحو ١٠٠ سنة قبل الميلاد حتى العصر الإسلامي (٩٠٠ – ١٤٠٠م) وأورد البروفيسور زارنز إشارة إلى أن زلزالاً خفيفاً ضرب المدينة والمبنى أدى إلى تدميرهما . ويعلق الباحثون على ذلك بأن ما يسميه البروفيسور الأمريكي بـ (الزلزال الخفيف) هو (الصيحة) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والتي ذهبت بمدينة إرم .

ويتواصل البحث والاستكشاف ليتمكن المستكشفون من تسجيل وترقيم حوالي ٢٥٠٠ من الأدوات والأواني التي عثروا عليها خلال موسمين من العمل، وتتراوح بين المصنوعة من السيراميك والمصنوعة من الحجر، بالإضافة

إلى عظام حيوانات وأصداف معدنية ونماذج أدوات أخرى من العصر الحجري الحديث كالفؤوس الحجرية والأمواس والسكاكين والمرايا المصنوعة من الحجارة، ومن المعادن وأحجار للطحن، وجميعها شواهد على أن الموقع كان مأهولاً منذ العصر الحجري عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد وظل يستخدم في العصر الحجري الحديث وحتى نحو عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

ولا نزال نستمع إلى تحليل المكتشفين في محافظة ظفار بأن أول بناء رئيسي بدأ فيما بعد عام ١٥٠٠ قبل الميلاد، وعندما جاء العصر الحديدي (بداية عام ٥٠٠ ق م) كان الموقع (مأهولاً) بدليل وجود أواني السيراميك المصقولة باللون الأحمر وجميعها في شكل (طاسات) منها الشكل المخزف بالنقاط، وهو النوع المتواجد في عمان منذ العصر البرونزي، وتواصل استعماله في ظفار خلال العصر الحديدي .

ومع اكتشاف أواني السيراميك، ثم اكتشاف نوع آخر من الأواني المعاصرة، مثل المصابيح المصنوعة من الحجر الرملي والمباخر والأواني المصنوعة من الحجارة وأوان أخرى، ومعظم المواد والأواني الجميلة يعود تاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد .

وقد أثبت تحليل العمر التاريخي بواسطة ما يسميه الأثريون معادلة كربون ١٤ أثبت أن منطقة (شصر) بمحافظة ظفار كانت معاصرة للعصرين الإغريقي والروماني حتى القرن الخامس الميلادي، وكانت آخر فترة تاريخية — في شصر — تعود إلى القرن الثالث عشر حتى السادس عشر الميلادي، ويستدل الأثريون على صحة ذلك بوجود الأواني الصينية الأصل والزجاج الملون بالأخضر كدلالة على ازدهار التجارة - على حد قولهم — ويخلص المستكشفون الأثريون إلى أن موقع (شصر) يمثل المركز الرئيسي للتجارة البرية المتجهة نحو الشمال، والتي بدأت من العصر الحجري الحديث، والتي يؤكدون ارتباطها بالنشاط التجاري

بين ظفار ومنطقة شمالي شبه الجزيرة العربية، حتى حضارة سومر في جنوبي العراق القديم . وفي عهدها الأول كانت التجارة تشتمل على العطور وخاصة اللبان، والارتباط التجاري بين ظفار وسومر يؤكد امتداد تلك التجارة نحو الغرب حتى غزة الفلسطينية ومصر القديمة . ويقول المستكشفون أن منطقة (شصر) ظلت مزدهرة خلال العصر الإسلامي عبر تجارة البخور والخيول، وكانت مرتبطة مع منطقة الربع الخالي من ناحية وساحل ظفار من الناحية الأخرى، إلا أن هذا الموقع صار مهجوراً منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وفي عدد من المواضع الأخرى تم اكتشاف موقع يبعد ٢٥ كيلومتراً إلى الشرق من شصر يعود تاريخه إلى العصر الحجري الحديث، كما تم العثور على أدوات حجرية تعود إلى عصور موغلة في التاريخ، وهو ما يشير إلى أن الإنسان العماني — كما يؤكد البروفيسور زارينز — كان متواجداً فوق ترابه منذ ما بين ٥٠ ألفاً إلى ٣٠ ألف سنة ماضية .

وإلى أن ينتهي العلم من تأكيد كلمته، يظل البحث مستمراً ومستضيئاً بإشارات كثيرة من المصادر التاريخية إلى (أهل عاد) ونشاطهم في تجارة البخور، وتأكيدات على أنهم كانوا يسكنون في منطقة (أوبار) أو (وبار) وأن هذه الإشارة تأتي تحت اسم (الأحقاف) لكن لا يصعب على الباحثين اليوم تحديد جغرافية موقع الأحقاف، بأنها تقع في المناطق الواقعة شمال جبال ظفار، والممتدة إلى حدود الجمهورية اليمنية، وهي نفس المنطقة التي اكتشفت فيها البعثة الأثرية الأمريكية، مستندة إلى صور الأقمار الصناعية، أبنية ذات أعمدة ضخمة غائرة تحت رمال الصحراء .

ومع أن القرآن الكريم لم يحدد فترة زمنية معينة عاش فيها قوم عاد، إلا أنه تحدث عن معاصرتهم للنبي هود — عليه السلام — والذي يوجد قبره في محافظة ظفار أيضاً . ومع ذلك، فإن البروفيسور زارنز يقول أن الإشارة في

القرآن الكريم إلى (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) وتحديد ذلك بموقع معين في ظفار، يظل محل بحث مستمر (ظفار مسيرة الخير، وزارة الإعلام ١٩٩٥م) والبحث لا يتوقف والعلم أيضاً . ولننظر ماذا قال المؤرخون والمفسرون العرب والمسـلمون عن (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) ؟

تضاربت الأقوال والروايات حول موقع مدينة(إرم ذات العماد) والتي كانت موطناً لقوم (عاد) إلا أن أبرز هذه الروايات، تلك الرواية التي جاءت في كتاب (البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي) بأن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، تقع في المنطقة ما بين محافظة ظفار وامتدادها غرباً في الأراضي اليمنية، أما عن كيفية بنائها ومن هو بانيها، فتقول الرواية بأن (شداد بن عاد) كان جباراً ولما سمع بالجنة وما أعد الله فيها لأوليائه الصالحين من قصور الذهب والفضة، والمساكن التي تجري من تحتها الأنهار، والغرف التي من فوقها غرف، قال لكبرائه : إني متخذ في الأرض مدينة على صفة الجنة، وأوكل تلك المهمة لمائة رجل من وكلائه، وتحت يد كل منهم وضع ألفاً من الأعوان، وأمرهم أم يختاروا أطيب تربة في هذه المناطق ومكنهم من الأموال .

ويقال أيضاً - في نفس السياق - بأن شداد بن عاد كتب إلى عماله الثلاثة، غانم بن علوان، والضحاك بن علوان، والوليد بن الريان، يأمرهم أن يكتبوا إلى عمالهم في آفاق بلدانهم أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران فيبعثوا به إليه، ثم توجه إلى جميع المعادن ليستخرج منها ما فيها من الذهب والفضة، وطلب إلى عماله توجيه الغواصين إلى البحار ليستخرجوا الجواهر فجمعوا منها أمثال الجبال، وتم تحميل كل ذلك إلى شداد بن عاد، ثم تم توجيه الحفارين إلى معادن الياقوت والزبرجد وسائر الجواهر فاستخرجوا منها أمراً عظيماً، وتم ضرب

الذهب ليصبح كالطوب حيث جرى استخدامه في تشييد المدينة التي رصعت حوائطها الذهبية بالياقوت والزبرجد والعقيق وجعل لها غرفاً من فوقها غرف، وكلها معمدة بأساطين الزبرجد والياقوت، ثم أجرى تحت المدينة وادياً ساقه إليها تحت الأرض أربعين فرسخاً كهيئة القناة العظيمة، ثم أمر فأجرى من ذلك الوادي سواقي في تلك السكك والشوارع والأزقة تجري فيها المياه الصافية . وأمر بطلاء حافتي النهر وجميع السواقي بالذهب الأحمر وجعل حصاه أنواعاً من الجواهر المتعددة ألوانها ما بين الأحمر والأصفر والأخضر، ونصب على حافتي النهر والسواقي أشجاراً من الذهب تتدلى منها ثمرات من الياقوت والجواهر الأخرى، وجعل طول المدينة ١٢ فرسخاً وعرضها مثل ذلك أيضاً، وقام بتسويرها بسور عال، وبنى فيها ثلاثمائة ألف قصر مفصصاً بواطنها وظواهرها بأصناف الجواهر، ثم بنى لنفسه، بوسط المدينة وعلى شاطئ النهر قصراً منيعاً عالياً يشرف على تلك القصور الثلاثمائة ألف وجعل بابها يشرع إلى الوادي بمكان رحيب واسع ونصب عليه مصراعين من ذهب مفصصين بأنواع اليواقيت، وأمر باتخاذ بنادق — جمع بندقة وليس بندقية — من مسك وزعفران فألقيت في الشوارع والطرقات، وجعل ارتفاع البيوت في جميع المدينة ثلاثمائة ذراع في الهواء، كما جعل السور مرتفعاً ثلاثمائة ذراع أيضاً في الهواء، مفصصاً خارجه وداخله بأنواع اليواقيت وظرائف الجواهر، ثم بنى سوراً حول المدينة يضم أبراجاً للمراقبة المرتفعة في السماء، وجميعها من لبنات الذهب والفضة لينزلها جنوده . ومكث في بناء المدينة خمسمائة عام .

تواصل الرواية سردها بأن الله سبحانه وتعالى، أحب أن يتخذ الحجة عليه وعلى جنوده بالرسالة والدعاء إلى التوبة والإنابة، فانتخب لرسالته إليه النبي هود عليه السلام، وكان من صميم قومه وأشرافهم وهو في رواية (الأنساب) كما جاء في كتاب الحموي أنه هود بن خالد بن الخلود بن العاص بن عمليق بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . دعا هود شداداً بن عاد

إلى الله تعالى وأمره بالإيمان والإقرار بربوبية ووحدانية الله عز وجل، فما كان من شداد إلا التمادي في الكفر والطغيان، حين تم لملكه أربعمائة سنة، فأنذره بالعذاب وحذره من زوال ملكه فلم يرتدع عما كان عليه، ولم يجب هودا لما دعاه إليه، ووافاه الموكلون ببناء المدينة ليخبروه بأمر الانتهاء من تشييدها كما أراد، فعزم على الخروج إليها وسط جنوده، وفي ثلاثمائة ألف من حرسه ومواليه، اتخذ مساره نحوها بعد أن خلف على ملكه بحضرموت وسائر أرض العرب - كما يقول الحموي - ابنه مرشد بن شداد الذي كان مؤمناً بهود عليه السلام. وحين اقترب شداد - وسط رجاله - من المدينة الموعودة، ودخل إلى جزء منها، عند تلك اللحظة جاءت الصيحة من السماء فمات هو وأصحابه، وغاصت المدينة في الأرض، وتلك هي الرواية الأولى .

وتجمع التفاسير حول الآية التي ورد فيها ذكر (إرم ذات العماد) في سورة الفجر، أنها ذات البناء الرفيع التي كان أهلها يسكنون بـ (الأحقاف) وهي الصحراء الممتدة بين عمان وحضرموت، وفي تفسير (التي لم يخلق مثلها في البلاد) أي تلك التي لم يخلق الله مثل سكانها في قوتهم وشدتهم وضخامة أجسامهم، وكان المقصود من ذلك هو تخويف أهل مكة بذكر ما صنع الله بعاد - أهل إرم - والذين كانوا أطول أعماراً وأشد قوة من كفار مكة . وقيل أيضاً أن (إرم) هو سام بن نوح بن عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح . ويقول ابن إسحاق : كان سام بن نوح له أولاد منهم : إرم بن سام، ومن أبنائه العمالقة والفراعنة والجبابرة، وقد جاء ذكر (عصر الجبابرة) في كتاب العهد القديم أيضاً .

والرواية الثالثة تقول إنه كان لعاد ابنان هما (شداد وشديد) وحين مات شديد خلص الأمر لشداد الذي سمع بذكر الجنة فقال : "أبني مثلها" فبنى (إرم) في بعض الصحاري . وتصف هذه الرواية (إرم) بأنها مدينة عظيمة

(قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت) وحين تم بناؤها سار شداد بأهل مملكته، فلما كان على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم (صيحة) من السماء فهلكوا .

والرواية الرابعة وردت في الجزء الأول من البداية والنهاية لـ (ابن كثير) وهي تقول أن (عاد إرم) أول أمم عبدت الأصنام (كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين) فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم فكذبوه وخالفوه، لكن (ابن كثير) يؤكد بأن (عاد إرم) كانوا يسكنون الأعمدة، سواء أعمدة الخيمة أو المباني العالية، كما يؤكد طول أعمار قوم عاد وقوة أجسامهم، إلا أنه ينفي أن تكون المدينة – إرم – من ذهب أو فضة .

زيارة إلى متحف أرض اللبان

نقوش . . مخطوطات . . وثائق . . قلاع . . حصون . . حفريات . . مسكوكات . . فخاريات . . فضيات . . أسلحة . . وكائنات بحرية . . وتشكيلات من صخور يقدر العلماء عمرها بـ ٤٤ مليون سنة، كل ذلك وأكثر، يحتويه متحف أرض اللبان الذي يشكل مصباحاً أثرياً يضيء بالماضي من التاريخ، والآثار والأسرار، والإصرار على الوجود الحضاري . تحركنا في جنبات متحف أرض اللبان بقاعتيه . . تاريخياً وبحرياً وسياحياً . . تجاذبنا أطراف الحوار . . بشراً وفكراً وأثراً . توقفنا ملياً أمام المقتنيات . . سؤالاً وبحثاً وكشفاً . سافرنا في ذاكرة الأيام . . عبر الأزمنة وعبر الأمكنة . إنها زيارة جديدة للتاريخ العماني تصحبنا فيها المعالم والملامح والسمات والقسمات . زيارة يستقطبنا لها المتحف، مثلما يقدم إبحاراً جديداً على صهواته نرتحل ونرى ونحدق . . ونشاهد ونرنو ونرمق . . وننظر ونناظر ونحقق وندقق . عمل

موسوعي مادي قائم على الشواهد والمشاهد، أبطاله الصور الموثقة، والصورة أصبحت الأصدق إنباءً في هذه الآونة من العصر .

يتجلى (متحف أرض اللبان) أحدث معالم هذه المنظومة المتحفية بما يتسم به من شمولية في أقسامه الستة، وبما يحتويه من شواهد الجغرافيا التي لابد أن تقترن بالتاريخ, وبما يستدعيه من عراقة تاريخية، وبما يتحلى به من قسمات جمالية، وبما يصوره من شرائح أثرية متنوعة، وبما يعرضه من رموز فكرية كامنة في جوهر الروح العمانية . يحمل متحف أرض اللبان رسالة يبثها عبر قناتين، الأولى هي "القاعة التاريخية"، والثانية هي "القاعة البحرية" والتاريخ والبحر عالمان واسعان في التكوين العماني، عبر عوامل الإنسان والزمان والمكان، وهي العوامل الثلاثة الحاكمة في تطور البشرية .

يشع متحف (أرض اللبان) بمفردات متنوعة من آثار ضاربة في عمق التاريخ، ومخطوطات نادرة لعلماء عمان، ومدن كبيرة جادلت الزمن، وملامح مميزة في تاريخ عمان، ورموز لنقلات نوعية وتحولات مضيئة في عصر النهضة الحديثة .

يضم متحف (أرض اللبان) قاعتين هما قاعة التاريخ والقاعة البحرية حيث تشتمل قاعة التاريخ على ٦ ،قسام يجسد قسمها الأول جغرافية عمان وتضاريسها موضحاً امتداد سواحلها مع جزرها وخلجانها لأكثر من ٣ آلاف و١٦٥ كم، وبمساحة تصل إلى ٥٠٠ ألف و٣٠٩ كم مربع، والتي جذبت إليها الهجرات السكانية عبر التاريخ . كما يوضح القسم موقع السلطنة وما يمثله من منطقة تماس حضاري ساهمت فيه مع شعوب أخرى في صياغة الأحداث التاريخية الهامة التي شهدتها المنطقة . ويشير القسم الثاني إلى عمان في الأزمنة القديمة شارحاً مراكز الاستيطان التي تنوعت في أرجاء مختلفة من عمان منذ البدايات الأولى للحضارة الإنسانية المتمثلة بحضارة الصيد على

السواحل وحضارة إنسان العصر الحجري معرجاً على استقرار الإنسان وإتقانه الزراعة وتربية الحيوان والإنتاج البدائي لسد حاجاته من الغزل والنسيج والأواني الفخارية والأدوات المعدنية . كما تشير المعروضات بالقسم إلى العصر البرونزي الذي تمكن فيه العمانيون من استخراج النحاس وممارسة التجارة مع بلاد الجوار وبلاد الرافدين والهند والصين حيث قامت حضارة متعددة السمات كما تدل الشواهد والآثار في مختلف مناطق عمان فيما يشير القسم الثالث والذي يحمل عنوان (أرض اللبان) إلى أن ظفار أرض اللبان ظلت طوال العصور الماضية مصدراً رئيساً لإنتاج وتصدير اللبان موضحاً أن الأرض حملت مسميات عديدة مثل "أرض عاد" و"بلاد بنط" و "بلاد الشجر" . كما تشير المخطوطات بالقسم إلى الاعتقاد السائد بأن الأحقاف التي ذكرها القرآن الكريم هي الأرض التي تقع فيها ظفار والتي عرفها الفراعنة والفينيقيون والإغريق والرومان والفرس والهنود والصينيون ونعتوها بمسميات مختلفة وأقاموا معها علاقات تجارية ووصفوا ساحلها بشاطئ اللبان والبخور، وكان الإغريق يسمونه عمان . وفي القسم الرابع من قاعة التاريخ تحت مسمى "إسلام أهل عمان" يتعرف الزائر على أن أهل عمان دخلوا الإسلام طواعية بعد أن وصلهم مبعوث الرسول — صلى الله عليه وسلم — عمرو بن العاص، ولذلك خلد الرسول ذكراهم بدعائه "رحم الله أهل الغبراء — أهل عمان — آمنوا بي ولم يروني" كما يبين القسم دعاء الرسول (ص) لعمان بالقول : "اللهم اهدهم اللهم زدهم العفاف والكفاف والرضا بما قدرت لهم اللهم وسع عليهم في ميرتهم وكثر خيرهم من بحرهم ولا تسلط عليهم عدواً من غيرهم" .

وتذكر المؤرخات بالقسم قبول العمانيين برسالة التوحيد ومساهمتهم في نشر الإسلام عبر الفتوحات الإسلامية والمعاملات التجارية ودورهم البارز في علوم الفقه واللغة والأدب مما أعطى عمان هوية متميزة بالاستقلالية والتسامح والتي كانت من أقوى دعائم إقامة الدولة . ويمكن الإطلاع من خلال القسم الخامس

بقاعة التاريخ بمتحف اللبان على ملامح من التاريخ العماني حيث تروي المحطات التاريخية المختارة في هذا القسم جوانب مختلفة من التاريخ العماني ونماذج من الأحداث والوقائع التي كانت عمان مسرحاً لها أو كان العمانيون طرفاً فيها .

كما توضح المعروضات بسط عمان سيطرتها على أنحاء مختلفة من ضفاف الخليج وبحر العرب والساحل الشرقي لأفريقيا بحلول القرن الثامن عشر لتؤسس بذلك حضورها القوي في المحيط الهندي وأصبحت مسقط من أهم الموانئ العالمية بفضل مهارة أبنائها التجارية والبحرية ومع ظهور الآلة البخارية وحضور الأساطيل الأوروبية إلى المنطقة تراجع الأسطول العماني وتوارى دوره التجاري وانحسر معه دور عمان لفترة طويلة حتى قيام النهضة المعاصرة عام ١٩٧٠م .

ومن خلال القسم السادس والأخير والذي يشير إلى نهضة عمان المعاصرة يمكن الإطلاع على ما حققته السلطنة من إنجازات عظيمة بقيادة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد منذ توليه زمام الحكم والنهضة العمانية المعاصرة في عام ١٩٧٠م .

وتنقسم القاعة البحرية بالمتحف إلى ٧ أقسام حيث تشير المعروضات في القسم الأول إلى "التراث البحري" ومعرفة العمانيين بالملاحة منذ العصور القديمة ونشاطاتهم في ظل الازدهار التجاري لحضارتي بلاد الرافدين ووادي الإندوس وصولا إلى إقامة شبكة علاقات منتظمة لقرون طويلة مع الهند والصين والساحل الشرقي لأفريقيا وبلاد حوض البحر المتوسط ثم المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية .

كما تظهر المحتويات مفردات البيئة البحرية ومهارات عمليات الإبحار ومفاصل تاريخية مهمة عن علاقة عمان بالبحر وتقف نماذج السفن العمانية

التقليدية في هذه القاعة شاهداً قوياً على المهارة البحرية والإتقان في صناعة السفن .

وفي القسم الثاني والخاص بـ "البحر" تشير المعروضات إلى ارتباط سكان عمان بالبحر الذي يعد أحد مصادر العيش وسبيلاً للتواصل مع الآخرين حيث أوجدت وسائل الصيد البدائية علاقة وجدانية بين العمانيين على امتداد شواطئها الجميلة والمتنوعة . ويجسد القسم الثالث في القاعة البحرية بناء القوارب والسفن الشراعية ومهارة العمانيين في ذلك منذ آلاف السنين حتى أن البعض منها لا يزال يستخدم حالياً في عدد من المناطق العمانية حيث تشير المعروضات إلى المواءمة بين ما وفرته البيئة العمانية من إمكانيات وما تم الحصول عليه من مواد مستوردة من السند وبلاد الرافدين . وتضم القاعة البحرية قسماً رابعاً بعنوان "الإبحار" يشير في معروضاته إلى أهمية الملاحة الناجحة والطرق المستخدمة فيها بمعرفة مسارات النجوم وحركة الشمس والقمر لتحديد الموقع والإلمام بقراءة تجمعات السحب ولون الماء والأمواج والاستعانة بالطيور في تحديد اتجاه اليابسة حيث يعرض القسم أجهزة قديمة وحديثة تساعد في الإبحار . ويبرز القسم الخامس "التجارة" حيث تشير المعروضات إلى اللبان الذي كان ينقل عبر موانئ سمهرم والبليد وريسوت والتعريف بميناء صحار الذي كان مصدر تصدير النحاس للحضارات القديمة والإشارة إلى تبادل تلك البضائع بالتوابل والعاج والحرير والخشب والذهب حيث تشير مخطوطات ووثائق صينية إلى أن أول البحارة العرب الواصلين إلى الصين كانوا من عمان عام ٧٥٠م كما أن أحمد بن نعمان الكعبي كان أول مبعوث عربي يصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٠م وأن السلطان سعيد بن تيمور كان أول حاكم عربي يزور الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٨م . ويجسد القسم السادس "واقع البحر الافتراضي" ويمثل نموذجاً للسفينة البغلة وهي إحدى أنواع السفن الكبيرة التي كانت تستخدم للرحلات البعيدة من عمان إلى

زنجبار وممباسا حيث يتم من خلال القسم التعرف على المخاطر والمعاناة في مثل هذه الرحلات واللحظات التي تعبر عن فرحة العودة إلى الوطن . ويعبر القسم السابع والأخير عن النهضة، وهي مرحلة اختراع المولدات البخارية واستخدامها في السفن، الأمر الذي أدى إلى منافسة كبيرة بين الدول أدت بدورها إلى انكفاء الأسطول العماني المكون من السفن الشراعية وتراجعه في تلك المرحلة وانحسار المستوى المعيشي وصولاً إلى دخول عمان في مرحلة جديدة مع شروق فجر النهضة عام ١٩٧٠م، حيث تفاعل العمانيون لبناء وطنهم والاستفادة من معطيات العصر الجديد كبناء الموانئ الحديثة واقتناء السفن المتطورة لسد حاجاتهم المعاصرة .

يقول معالي عبد العزيز بن محمد الرواس مستشار السلطان قابوس للشئون الثقافية : إن متحف أرض اللبان يشكل إطلالة شاملة على عمان بمختلف مناطقها عبر الأزمنة، ويقدم المتحف موجزاً لتاريخ عمان من خلال قاعتين، الأولى للتاريخ ونماذج من الشواهد الأثرية عبر العصور، والثانية تحتوي على نماذج مصغرة للسفن العمانية وموجز لعلاقة العمانيين بالبحر . كما يوفر المتحف للزائرين والباحثين ملخصاً لمسيرة عمان عبر تاريخها الطويل، والذي لم يكن متاحاً بطريقة علمية قبل بزوغ فجر النهضة المباركة بقيادة السلطان قابوس بن سعيد، الذي أطلق مسيرة التنمية الشاملة والمستدامة في كل الميادين عام ١٩٧٠ تفاعلت من خلالها عمان مع محيطها الإقليمي والدولي في إطار التعايش السلمي بين الدول، وتبادل المصالح بين الأمم، على نهج ثقافة التسامح والسلام .

وحول اختيار منظمة اليونسكو لموقع أرض اللبان بمحافظة ظفار يقول أنها موطن شجرة اللبان وبلاد المنشأ والتصدير . ووضعها على قائمة التراث العالمي، ولذا فإن هذا الاختيار يشكل قيمة مضافة لكنوز عمان الأثرية في منظومة التراث

الثقافي والطبيعي التابعة لليونسكو استناداً إلى حيثيات علمية ومعايير عالمية : المنطقة الداخلية قلعة بُهلاء وضعت على قائمة التراث العالمي عام ١٩٧٨م وفي منطقة الظاهرة، مواقع بات والخطم ووادي العين عام ١٩٨٨م وفي محافظة ظفار مواقع أرض اللبان وهي : مدينة البليد، ومدينة خور روري / سمهرم، وشصر / ويار، ووادي دوكه (حيث تنمو أشجار اللبان) . وقد تم تسجيلها باسم "طريق تجارة اللبان" عام ٢٠٠٠م ثم أعيد تسجيلها عام ٢٠٠٥م تحت اسم "أرض اللبان" كما اعتمدت منظمة اليونسكو في قائمة التراث العالمي، نظام الأفلاج العمانية عام ٢٠٠٦، حيث اختارت خمسة أنواع من هذه الأفلاج كنماذج للموروث الحضاري العماني وهي :

- فلج الجيلة بولاية صور
- فلج دارس وفلج الخطمين بولاية نزوى
- فلج الميسر بولاية الرستاق
- وفلج الملكي بولاية إزكي .

في رحاب شجرة اللبان

هنا البحر . . بخيراته، التي تفيض وتستفيض، وخبراته التي لا تغيض في وجدان الناس في جنوب عمان، وطيباته وما أكثرها وتكاثره، ومغامراته التي لا تنسى (مع) الناس حين يعرفون أسرار تقلباته، و(ضدهم) أحياناً حين يكون الحوار مع الأمواج عنيفاً . . هنا الجبل . . بعناده الذي يلين أحياناً، وصلابته التي تلقي بظلالها الرقيقة في عنفها، والأصيلة في عنفوانها، وهي تسمح على استحياء للون الأخضر أن يهزم اللون الأصفر، فيتوارى اللون الأسود خلف ستائر الأشجار والاخضرار والازدهار .

هنا السهل بانسيابيته رغم أنف الصحراء الممتدة والممدودة. كأنها بلا قيود ولا حدود، وقد عنت وجوهها للعمار، ونزعت أقنعتها للإعمار، واندثرت وحشيتها بالتعمير إلا قليلاً في جنبات ظفار . هنا الهواء . . نتنسمه بقوانين الاستشعار عن بعد . والأثير ينقل شذى الأشجار التي لا تموت واقفة أو منحنية . وأنى لها الانحناء بين كل هذا الشموخ الطبيعي، والعبير منبعث من شجرة اللبان، التي هي عنوان عماني جنوبي يتجلى بالجمال والشهامة، والأصالة والحضارة .

إنها ثنائيات التكوين يجري بينها الجدل، والحياة قصيدة جدلية من الثنائيات، وحوارية بين المتقابلات . على جبال عمان تحطمت الشيوعية، فكانت عمان كلها، بمثابة الصخرة التي طأطأت عليها رأس الشيوعية قبل سقوطها المدمر بعشرين عاماً وتلك قصة يجب أن تروى للأجيال والتاريخ، وسنوردها في مقام آخر . ومن سهول عمان، تجلت شجرة اللبان جسراً حضارياً، لا يزال ممتداً في التاريخ والجغرافيا والحضارة والحاضر، والمستقبل أيضا، وتبوح الشجرة فيها بكثير من الأسرار من قلب الجبل القاسي، تولدت نظريات تلقائية في التربية، يمارسها أبناء ظفار، الذين لا تزال خيوطهم مربوطة بنجوم السماء في الجبال رغم أن الأجيال الجديدة تتحاور مع العصر في الطب والهندسة والتكنولوجيا .

حتى وأنت تنظر إليها من بعيد تراها شجرة غير عادية . . لماذا؟ إنها تتوسط قطعة من الصحراء التي بدورها تبسط يدها لعطاءات شجرة اللبان، الخير منها يتساقط، فتلتقطه الأيادي بحب واحتواء، والسر فيها يتغامض فيغري على السفر في ذاكرتها القوية، المضمخة بروائح عرش النبي سليمان، والمتجلية بإقامة الصلوات في أماكن العبادة للكثير من الديانات والمستقطبة اهتمام العلمـــاء ليشهدوا لها بمكنونها العلاجي .

نقرأ في كتاب "تاريخ مصر" للمؤرخ "برستد" أن كرات من هذه الثمرة وجدت في مقبرة توت عنخ آمون، وأن استخدام بخور اللبان في الأغراض الدينية ظهر في مخطوطات المصريين القدماء أيام الأسرتين الخامسة والسادسة، وكانت حملات برية ترسل إلى ظفار العمانية . بعد القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد . إلا أن استخدام هذه (الثمرة العجيبة) في مراسم دفن الموتى لم يظهر بجلاء إلا بعد اكتشاف علم التحنيط .

ورواية تاريخية تشير إلى أن ثمرة شجرة اللبان ساهمت في بخور عرش نبي الله سليمان، كما جاء ذلك في أنشودة له، ورواية أخرى تؤكد ورود إشارات لها في إنجيل (متى) ويقول مؤرخون أن هذه الثمرة قدمت هدايا للسيد المسيح عليه السلام وتشير سجلات (بليني) التاريخية إلى أنه في عام ٦٦ بعد الميلاد استطاع الإمبراطور (نيرون) أن يحرق كمية من اللبان تفوق كل إنتاج جنوبي شبه الجزيرة العربية في عام واحد، وكان ذلك في مناسبة دفن جثمان زوجته (بربارة) .

ولا يزال اللبان العماني يفوح بروائحه السرية في البيوت والمنازل، حتى في الفاتيكان والكنائس الرومانية أثناء التجمعات الكبرى لصلواتهم، من منطلق الاعتقاد أنه يطرد الشياطين والأرواح الشريرة . وهذه الشفرات السرية للبان العماني، استقطبت العلم والعلماء قديماً وحديثاً، حتى أن العالم الكبير (ابن سيناء) يؤكد أنها تداوي الكثير من الأمراض مثل أمراض البطن والقلب والربو، كما أنها توقف النزيف الداخلي والخارجي وتعالج أورام الطحال وآلام المفاصل، وأن مشروب اللبان الظفاري يزيد من جلاء الذهن وصفائه ويذهب بالنسيان . وفي العصر الحديث يستعين الطب باللبان، بل إن دولاً صناعية كبيرة تطلب اللبان لإدخاله في صناعة الأدوية والزيوت والمساحيق والعطور والشموع .

وفي رحاب شجرة اللبان يتم استثمار عطاءات هذه الشجرة العجيبة، بل هي تمثل واحداً من مصادر الدخل . ويتبدى التواصل بين الحاضر مع الحضارة، حين يخبرنا التاريخ أن القوافل البرية كانت تخرج من ظفار محملة باللبان حتى تصل إلى فلسطين (غزة) مروراً بشمالي اليمن، وهي المنطقة التي كانوا يطلقون عليها (سلطنة اللبان) وكانت الرسوم التي يتقاضاها أهل هذه المنطقة من قوافل اللبان التجارية، تشكل دخلهم القومي، وكانت المسارات متعددة ووعرة، لكنها تهون من أجل سر الشجرة المثيرة والتي لا تنبت إلا في عمان على الرغم من أن الحركة تبدأ من ظفار مروراً بالساحل الفلسطيني الذي يحملها إلى روما القديمة، كان ذلك قبل أكثر من سبعة آلاف عام (مسيرة الخير، وزارة الإعلام، ظفار ١٩٩٥) .

بث الأقمار الخضراء

أحدق في شجرة اللبان والرجل الأسمر يجري الحوار معها . وأستمع إلى مفردات الحوار بين الرجل والشجرة . ما إن تميل درجة الحرارة للارتفاع في أوائل شهر أبريل من كل عام،حتى يقوم المشتغلون بجمع الثمار (بتجريح) الشجرة في مواضع متعددة، تتراوح بين عشرة وثلاثين موضعاً – حسب حجم الشجرة – وبواسطة أداة صغيرة يسمونها (المنقف) وهي آلة ذات يد خشبية ورأس حديدي حاد مستدير الشكل .

الضربة الأولى للشجرة يسمونها التوقيع ويقصد به كشط القشرة الخارجية لأعضائها وجذعها، ويتلو هذه الضربة نضوح سائل لزج حليبي اللون، سرعان ما يتجمد فيتركونه هكذا لمدة ١٤ يوماً تقريباً، بعدها تبدأ المرحلة الثانية من استخراج الثمار . أما السائل الذي ينضج فيتم كشطه إلى الأرض، وعندها تبدأ عملية التجريح الثانية .

والجمع الحقيقي يبدأ بعد أسبوعين من "التجريح الثاني" حيث تنقر الشجرة للمرة الثالثة، وفي هذه الحال، ينضح السائل اللبني ذو النوعية الجيدة، والذي يعد تجارياً من مختلف الجوانب، ويكون لونه مائلاً إلى الصفرة، ثم يبدأ في التجمد إما على الشجرة نفسها أو يسقط منها على الأرض . إذا كانت الشجرة غزيرة الإنتاج، وإذا كانت الضربة الأولى يسمونها "التوقيع" فالضربات التالية يطلقون عليها اسم "السعف"، على أن ضرب أشجار اللبان لا يتم بشكل عشوائي، فهو يحتاج مهارة فنية وخبرة خاصة، فقد يؤدي الخطأ في عملية الضرب إلى إصابة الشجرة بـ "العقم" ومن ثم يحذرون من إصابتها في اللب .

ويستمر موسم الحصاد لمدة ثلاثة أشهر، وأحياناً ما يمتد من أبريل إلى أكتوبر من كل عام، حيث يتم تجميع هذه الثمار بشكل منتظم، وتجمع الثمار في سلة مستديرة من "الخوص" يسمونها باللهجة المحلية "قفير" . ويبلغ متوسط إنتاج الشجرة الواحدة من الثمار نحو عشرة كيلوجرامات تقريباً، وهناك أشجار أخرى تنتج عشرين كيلوجراماً . ويصل ما تنتجه محافظة ظفار في العام الواحد إلى سبعة آلاف طن تقريباً وهو ما يمكن تقدير قيمته المبدئية بحوالي مائة مليون دولار . ويستخدم سكان محافظة ظفار ثمار أشجار اللبان في ماء الشرب، حيث يضعون ثلاثة فصوص في قدح الماء لتساعد على "الإدرار" كما أنها تجعل الماء بارداً ونقياً في الصيف .

ومن بين التقاليد الراسخة منذ القدم في محافظة ظفار، ما يحدث عند الزواج، حيث يعدون المباخر الضخمة من الفخار، ويحملونها — عادة — فوق الرؤوس، يملأونها بكمية من الرماد توضع فوقه جمرات من الخشب المحترق، ثم يلقى عليها اللبان ليذوب في النار ويتصاعد البخور برائحته المحببة، ويعطر بخور اللبان رقصة "الهبوت" التي تتم على شكل دائرة كبيرة قطرها حوالي

مائة متر، توضع في وسطها المباخر المتوهجة . وهناك استعمال آخر لثمار اللبان حيث تكون "المبخرة" على مقربة من مهد المولود لاعتقادهم بأنها تعطر الغرفة وتطرد الروائح الكريهة . ومن العادات الثابتة إطلاق البخور على باب المنزل في الصباح الباكر لجلب السعادة للأسرة طوال ذلك اليوم، ومن ثم يحرصون على وجود قدر من هذه الثمار في المنزل تصونه من الأذى وتدفع عنه المضار من الهوام .

حوار لُبانيِ عربيِ أمريكيِ

وهذا حوار من نوع آخر بين اثنين من مؤرخينا العرب المشهورين ومؤرخ معاصر بجامعة ساوثوست ميسوري الأمريكية . تقول أوراق الذاكرة الجمعية أن سكان ظفار عرفوا شجرة اللبان منذ أقدم العصور، ولكن استخدام ثمارها — بشكل واسع — لم يبدأ إلا في العصر الحجري الحديث (قبل حوالي ثمانية آلاف عام) فقد سلكت قوافل التجارة المحملة باللبان الظفاري خلال العصر الإسلامي نفس الطريق التي كانت مستخدمة منذ العصر الحجري الحديث، وهي التي أنشأها العرب والرومان مهتدين بنفس الطرق القديمة، وكانت طرقاً معبدة يعود تاريخها إلى عصور قديمة تتعرض للإهمال بعض الوقت ثم يعاد إصلاحها للاستخدام في أزمان تالية .

يذكر ياقوت الحموي أن العرب كانوا يعبرون الربع الخالي — بصورة دائمة — في رحلة قد تمتد خمسة وأربعين يوماً من منطقة (وادي الدواسر) شمالاً إلى حدود منطقة المهرة في الجنوب . وقد ظل العرب يذكرون الطريق من ريسوت بصلالة، إلى بغداد — عبر الربع الخالي — حتى ثلاثينيات القرن العشرين، ويشير المؤرخ (ابن المجاور) إلى وجود طريق بين مرباط وطاقة القديمة يمتد إلى الكوفة، وأن هذا الطريق يتفرع منه جانب آخر إلى واحات الأحساء

استغراق في ثمانية كنوز

في مياهها . . أعداد لا حصر لها من الأسماك التي تشكل ثروات بحرية فياضة . وفي سواحلها أشجار كثيفة لا تعبأ بكون المياه عذبة أم ملحة . وعلى نباتاتها عشرات الأنواع من الطيور المحلية، والمهاجرة، ثماني محميات أو ثمانية كنوز، تشكل في مجملها محمية كبرى متقاربة الملامح والمعالم، تقول الكثير عن تكويناتها ومضامينها ودواخلها، وتبوح بالمثير من الأسرار والبحر والتاريخ والأرض التي لم يطمسها إنس ولا تكنولوجيا إلا بالحوار العلمي والعملي الذي يراعي جمالياتها ويستثمر خيراتها وخبراتها .

هنا . . تتعانق الآثار مع الأخوار، على طول ساحل محافظة ظفار . هنا . . تتجاور الموارد الطبيعية مع العطاءات الحيوية، وتعززها المواقع الأثرية والشواهد التاريخية، لتجعل من محميات الأخوار نقاط اجتذاب، وكنوز استقطاب، تمنح المنطقة خصوصية فريدة، تتجلى بالمقومات التي تؤهلها كينابيع خير، ومصادر حركة للسكان الذين يؤثرون العيش والإقامة بالقرب منها، وكموارد قادرة على العطاء إذا ما تم استثمارها بما يتناغم مع طبيعتها، ويتكافأ مع ما تحتويه من ثروات لا تنضب مادام الحفاظ عليها مستمراً، والمحافظة عليها دائمة، خاصة بعدما أعلنت كمحميات بتاريخ ١٩٩٧/٦/٢٨م . وتتراوح مساحة الأخوار من بضعة هكتارات إلى ما يزيد على مائة هكتار في الأطراف الشرقية لجبل القمر، ينساب حول المغسيل، محمية هامة، تبدو أهميتها من مساحتها التي تبلغ أكثر من نصف كيلومتر مربع ويمتد طولها ٧٠٠ متر، وامتد عرضها ١٥٠ متراً . هذه واحدة . . والثانية أن الخور تفصله حواجز رملية عريضة عن البحر، الأمر الذي يتيح الفرصة الطبيعية للنباتات والأعشاب لكي تنمو بكثافة، وأن تنتشر على كافة جوانب الخور، هذه

الكثافة من الغطاء النباتي تشكل واحة جذب للطيور على طول الساحل الغربي لمحافظة ظفار، وهذه هي الميزة الثالثة لخور المغسيل، وهي ميزة جعلت إدارة المحمية تقوم بتسويره حماية ورعاية وعناية . حين تتجاوز الأطراف الشرقية لمدينة صلالة، يستوقفك على مدد النظر خور الدهاريز الكبير، الذي يمثل عقداً طبيعياً في منظومة محميات أخوار محافظة ظفار . مساحة تبلغ ٠,٦ كيلومتر مربع، ومياه مفتوحة ممتدة بطول كيلومتر تقريباً، تضم مجموعات متنوعة من الأسماك، ترتبط بصفة منتظمة بمياه البحر من خلال الحاجز الرملي، ومصب موسمي في البحر بطول خمسين متراً، ونباتات كثيفة من القصب يتراوح طولها مابين ثلاثة إلى عشرة أمتار، ومواقع تألفها الطيور لتتكاثر فيها خاصة المساحات التي ينمو فيها القصب . وقد تم حتى الآن تسجيل ما يزيد عن (٨٠) نوعاً من الطيور .

يتجلى مفتاح شخصية هذه المحمية في البعد الأثري، ومن ثم تستمد محمية خور البليد قيمتها من مدينة البليد الأثرية الأولى من نوعها في السلطنة حيث أنها تجمع بين شواهد التاريخ، والاستمتاع بالموارد الطبيعية، بمساحتها التي تبلغ كيلومتراً مربعاً، ويلفها حزام أخضر هادئ يزيد مدينة صلالة بهاءً وجمالاً .

تلكم هي محمية (خور عوقد) التي تتهادى باخضرارها وازدهارها داخل حدود صلالة، محمية أنيقة بمساحتها الصغيرة نسبياً، التي تستقطب العديد من الطيور التي تتكاثر فيها فتمنحها حيوية وجمالاً وحركة وصوراً متنوعة الألوان تبهج الناظرين وتسر السائحين . ساعة أن تركب الطريق المتجه من صلالة إلى ريسوت، يستقطب عينيك هذان الخوران، ففي غمضة عين يجذب حواسك غطاء نباتي يكسو المنطقة باللون الأخضر، المنبعث من أشجار القرم، والتي من فرط كثافتها وجمالها وكثرتها استمدت المحمية اسمها منها، وإزاء

هذه الميزة الطبيعية، أولتها الإدارة كل الأهمية، ليتم تخصيصها كمحمية ذات عوائد سياحية واقتصادية واجتماعية .

وحين تبعد حوالي ثلاثين كيلومترا شرق مدينة صلالة، وعلى جانب الطريق المؤدي إلى ولاية طاقة، ترى سورا كبيراً يحيط واحدة من أهم المحميات في محافظة ظفار، إنها محمية (خور صولي) ذات المساحة التي تبلغ حوالي كيلومتر مربع، والتي تقع في مستجمع مياه أمطار وادي هشيم ووادي فضليت . ونظراً لأهمية هذه المنطقة، قبل إعلانها محمية، فقد أنشئ هذا السور، حماية أيضاً لبعض المواقع الأثرية الهامة، وقد كشفت الدراسات الميدانية أن خور صولي من الناحية البيولوجية يعد أحد أهم الأخوار بالمنطقة، وأكدت النتائج العلمية البحثية أن الخور يحتوي أعدادا كبيرة من أنواع اللافقريات المجهرية ما يزيد على (٤٠) نوعاً، بينما تبلغ الطيور (٦٦) نوعاً، والأسماك (٣٦) نوعاً، وأما النباتات فيزيد عددها على (٧٠) نوعاً، ومن هنا تكتسب محمية خور صولي أهميتها ذات الأبعاد المتنوعة، والتي تجعل منها محمية ذات وضعية مميزة، تبشر بعطاءات كثيرة .

وعلى بعد حوالي ثلاثين كيلومترا من صلالة، وغرب ولاية طاقة، تقع محمية خور طاقة التي تبلغ مساحتها (١٠٧ كيلومترات مربعة) وترتبط المحمية بالبحر، نتيجة تدفق المياه العذبة إليها من أحد الينابيع، حتى ليبلغ تدفقها ١٤٠ لتراً في الدقيقة، وتساعد هذه الميزة كثيراً في نمو النباتات التي تعتمد على المياه العذبة، كما تساند النباتات التي تنمو وسط مياه عالية الملوحة . أما أهم ما يتميز به الخور أيضاً، فهو وجود لسانين بحريين متوازيين في اتجاه البحر، يمتد كل منهما كيلومتراً تقريبا .

أما محمية (خور روري) فهي تضم واحداً من أكبر الأخوار التي تم تخصيصها كمناطق محمية على طول ساحل صلالة، حيث يصل طوله إلى ٢,٥

كيلومتر، وعرضه ٤٠٠ متر وتبلغ مساحته الكلية ٨,٢ كيلومتر مربع وتستمد المحمية قيمتها وجدواها من الموقع الأثري المشهور والمعروف باسم (مدينة سمهرم) التي تطل على ضفاف مياهه، ويتميز بمناظره الطبيعية التي تتأثر بموسم الخريف فتتناغم معه في منظومة الجمال، وهذا هو البعد السياحي للمحمية . هذه المنظومة من المحميات والأخوار الطبيعية، تشهد عمليات تحديث وتطوير، لتؤتي عطاءاتها أكثر من ذي قبل، على ضوء الإمكانيات الحديثة والتقنيات المستمرة، بما يتناغم مع متطلبات المجتمع الذي يأخذ بأسباب العلم، ويراعي العادات والتقاليد، ويحرص على المضي المستمر في مسارات التنمية الشاملة التي تنهض دائماً متكاملة .

د. مجدي العفيفي

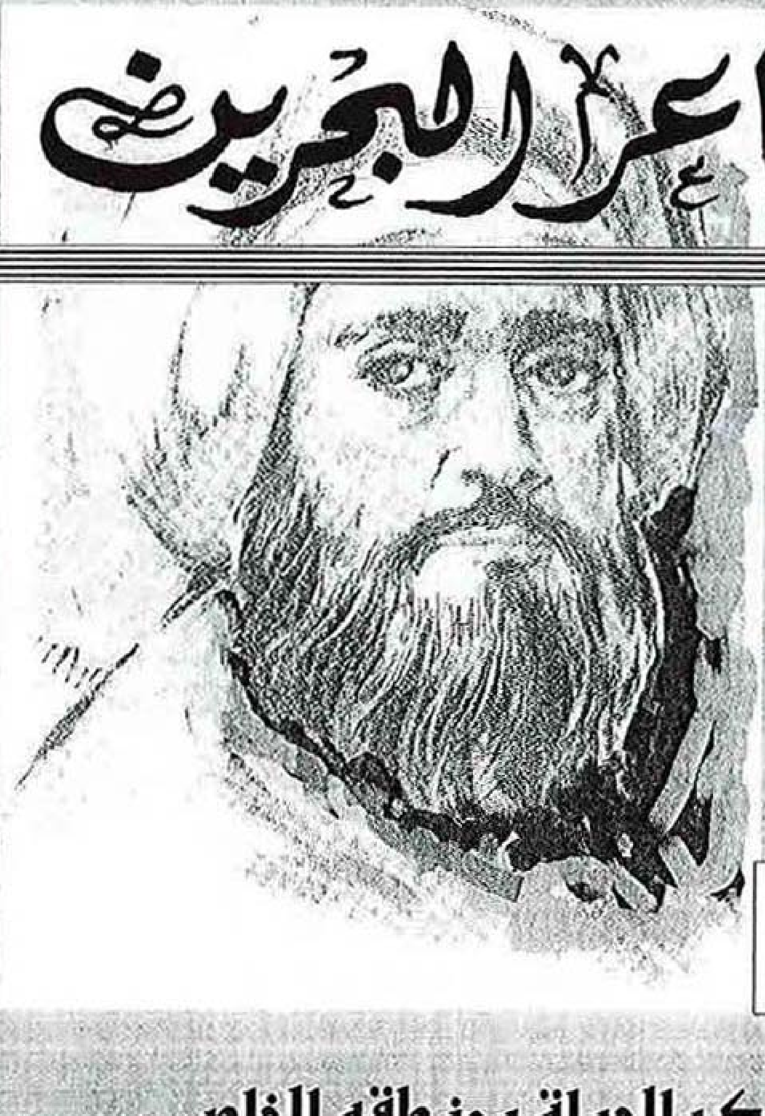
طرفة بن العبد

شاعر الأمل وحب الحياة..

مقدمة

يعدون على أصابع اليد هم شعراء المعلقات . . ورغم ذلك اختلف الرواة والنقاد في عددهم . . قيل أن عددهم سبعة، ومرة أخرى قيل عشرة . . ولم يتجاوز عددهم هذا الرقم عند أحد . . وشعراء المعلقات هم قمم الشعر العربي الذين قرر زملاؤهم تتويجهم أمراء للشعر والشعراء . . وكانت جائزتهم توازي عظمة مكانتهم . . فقد كانت هذه الجائزة، هي تعليق شعرهم على جدران الكعبة المشرفة . . من بين هؤلاء السبعة، أو العشرة، اختصت البحرين بواحد منهم . . يرى العديد من النقاد أنه أعظمهم فقد اجتمع عنده العبقرية والحيوية وصغر السن . . وفي الصفحات التالية لمحات من شخصية شاعر البحرين العظيم .

شاعر البحرين



بقلم : الدكتور
محمود عطية

**** طرفة تمسك بالحياة بمنطقه الخاص..
وهو الإقبال عليها لذة ومتعة وقوة غير
هياب من الموت وإن تذكره دوما**

**** ربما تكمن المعضلة الحقيقية فى عدم استيعاب طرفة على أنه "شاعر الأمل" فى نظرتنا لماهية وتعريف "الأمل"..**

**** بمقتل طرفة في ربيع عمره حرم عشاق الأدب والباحثون في علوم الصحراء والبداوة من مصدر خصب كان يمكن أن يزوّدهم بالمعلومات التي يحتاجونها!..!!**

دوما ما كنت أرى شاعرنا الكبير "طرفة بن العبد" رمزا للأمل ونبراسا للحكمة . . وكلما عاودت الرجوع إلى ما أبدعه في فنون الشعر بداية من البكاء على الإطلال كعادة أهل عصره إلى ما نظمه عن حياته اللاهية العابثة كما يراها الكثيرون – ولا أرى فيها أنا ما يرونه –..تذكرت عشقه للحياة وتمسكه بالأمل رغم يتمه المبكر وغدر اقرب المقربين إليه بأمه وبه مستغلين حداثة سنه..!

ولا أدرى لماذا كلما قرأته – أي شعر طرفة – تذكرت ما قاله" اندريه مارلو" في ختام روايته الأمل: (في عالم بلا أمل يصعب التنفس) . . فالأمل يعني الحياة أو هو الحياة . . فلولا الأمل ما بقيت الحياة وما فيها . . وطرفة ما كان يستطيع التخلي عن الأمل والحياة..خاصة أنه كان مازال فى سن الحياة سن الشباب وبالتحديد بدايات سن الشباب والفتوة . . ونحن حين نفتقد الأمل نفتقد معه رغبتنا في الحياة ونشعر بالموت يتسرب إلينا بعنف وبلا هوادة . . وطرفة تمسك بالحياة بمنطقة الخاص وهو الإقبال عليها لذة ومتعة وقوة غير هياب من الموت وإن تذكره دوما . . !

وطرفه بحق هو شاعر الأمل..وأظن أن كثيرين سوف لا يرون ما أراه من أن طرفه شاعر الأمل..لكن إمعان النظر فيما قاله شعرا . . وتقليب الظن بعد الظن فيما أنشده تظهر لنا شخصية الشاعر الحقيقية المليئة بالأمل والمفعمة بحب الحياة . . رغم أشباح الموت التي دائما ما تلوح في شعره لكنه يحاربها بما ملكت يده من موهبة فطرية فذة وبصيرة ثاقبة خبرت الحياة رغم حداثة سنها..!

نداءات الحياة

ومع تذكره الدائم للموت فى شعره لا نستطيع إغفال نداءات الحياة فى شعره وفى سلوكياته الحياتية . . وإلا، بماذا نسمى الإصرار على الحياة التى يمارسها طرفه حتى الثمالة فى شعره وحياته معا غير أنها رغبة أكيدة في عدم الاستسلام للموت ولطغيانه . .؟! ألا يمكن أن نسمى ذلك أيضا أملا . .؟!

ربما تكمن المعضلة الحقيقية فى عدم استيعاب طرفة على أنه شاعر الأمل فى نظرتنا لماهية وتعريف "الأمل" . . فلو عرجنا قليلا على ما توصل إليه عالم النفس الأشهر (سيجموند فرويد) عن النفس الإنسانية ربما تتضح الصورة قليلا خاصة إذا ما تذكرنا كشفه العظيم عن "الشعور واللاشعور" الإنسانى وميتافيزيقيته . . وحين نتذكر أن الأمل كظاهرة إنسانية يختص بها الجنس البشرى دونا عن سائر أحياء الكون وكائناته نجد أنه أى الأمل يمثل ظاهرة مركبة وعلى درجة عالية من الالتباس والألغاز . . ففي ضوء كشف فرويد، نجد أن الأمل ليس كله شعوريا وإنما ينطوي على جانب لاشعوري . . !

وهذا ما تنبه إليه عالم النفس والفيلسوف (أريك فروم) حيث أشار إلى ضرورة التمييز بين الأمل الشعوري والأمل اللاشعوري حيث يذكر : (في فحص الأمل واللاأمل ليس مهما ما يعتقده الناس عن مشاعرهم ولكن ما يشعرون به

حقيقة . . إن هذا يمكن إدراكه على الأقل من خلال كلماتهم وعباراتهم، بل ويمكن كشفه من تعبيرات وجوههم، وطريقة مشيهم ومن قدرتهم على رد الفعل باهتمام تجاه بعض الأشياء التي تقع أمام أعينهم . .) .

وبناء على التحليل السابق يمكن أن نفتقد الأمل على مستوى حياتنا الشعورية الواعية أى لا نكون واعين به وربما نظهر ونبدى على هذا المستوى يأسا ظاهرا للعيان . . ولكننا نظل أملين على مستوى أخر هو مستوى اللاشعوري أو ربما يحدث العكس . . بمعنى أننا قد نبدو مفعمين بالأمل والتفاؤل على مستوى الشعور ومحبطين يائسين على مستوى اللاشعور . . !

وقد تصور فرويد فى كتابه "منغصات الحضارة" أن هناك قوتين أو غريزتين تتصارعان داخل الوجود الإنسانى : إحداهما هي غريزة الموت أو النزعة إلى الهدم والتدمير والعدوان والأخرى هي غريزة الحياة التي تنزع نحو الاستمرار في الحياة (الأيروس) ويتصور فرويد أن هناك صراعا وتداخلا بين الغريزتين . . أو كما قال (بجانب الغريزة التي تحافظ على جوهر الحياة وتربطها بصورة دائمة بوحدات أوسع هناك غريزة مناقضة للأولى تسعى إلى حل تلك الوحدات وإرجاعها إلى حالتها البدائية، الحالة العضوية" .

وربما كانت حالة طرفة بن العبد الشاعر العظيم هى "الحالة النقية" - كتعبير علماء النفس - أى الحالة التي يتجسد فيها الأمل على مستوى الشعور واللاشعور . . فهو من جهة لم يفقد الأمل في أبناء عمومته رغم غدرهم بأمه وبه ولذلك لا يمل من تذكرهم فى شعره ولو هجوا وعلى المستوى الظاهر يحسب الغافل انه كره أبناء عمومته بدليل هجائه لهم . . أو مل منهم لكنه يناجيهم برغم ما يبدو فى شعره من تقريع لهم . . فلو كان قد فض يديه منهم وفقد الأمل فيهم ما ذكرهم دوما وكان قد أغفلهم في شعره ولم يكن لهم معاتباً مرة ونادبا ظلمهم ووقعه الأليم عليه وهم أقاربه :

وَظُلمُ ذوي القربى أَشَدُّ مَضاضَةً

عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَدِ

ثم يقول مرة أخرى:

فمالي أراني وابن عمي مالكا

متى أدن منه ينـأ عني ويبعـد

يلوم وما أدرى عـلام يلومني

كما لامني في الحي قرط بن معبد

انه طرفه صاحب المعلقة الطموح وصاحب النظرات الخاصة فى الحياة والأمنيات التى يسعى لتحقيقها . انه يرى الحياة وكأنها كتاب مفتوح أمامه فيرى أن الأيام حتما مخبرة إيانا ما كنا نجهله ولا نعرفه ولا ندركه وتأتى إلينا الأخبار مهما غمضت وتساق إليك الأخبار حتى وان كنت لا تتبعها وتطلبها أنها الحياة كثيرة الغرائب وأيامها تظهر الخفي وتسوق إلينا من ينبئنا دون أن نطلب ذلك :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالأخبـار من لم تـزود

ويأتيك بالأنبـاء من لم تبع لـه

ويأتي ولم تضرب له وقت موعـد

ويستنبط الدكتور طه حسين من خلال مراجعة معلقة طرفه شخصيته ومذهبه فى الحياة فيقول : (معلقة طرفة تبدو فيها شخصية قوية، ومذهب في الحياة واضح، وهذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا نحل) .

فلم يكن طرفه غير نفسه . . يرى ويقدم نفسه البطل الشجاع فى ساحة الوغى وساحة الحياة كلاهما سيان عنده . يعتب على من يعتب عليه بأنه لا

يستطيع دفع حتفه فيرجوه أن يتركه يعب من الحياة عبا كما يريد ويشتهى فهو محب للحياة بطريقته الخاصة كشاب فيقول :

ألا أيُّهـذا اللائِمي أحضُرَ الوَغى
وَأن أشهَدَ اللَذّاتِ هَل أنتَ مُخلِدي
فَإن كُنتَ لا تسطيع دَفعَ مَنيَّتي
فدَعني أبادِرها بما مَلَكت يَدي
وَلَولا ثَلاثُ هُنَّ مِن عيشَةِ الفتى
وَجَدِّكَ لم أحفِل مَتى قامَ عُوَّدي
فَمِنهُنَّ سَبقي العاذِلاتِ بِشَربَةٍ
كُمَيتٍ مَتى ما تُعلَ بالماءِ تُزبِدِ
وَكَرّي إذا نادى المُضافُ مُحَنَّباً
كَسيدِ الغَضا نَبَّهتَهُ المُتَوَرِّدِ
وَتَقصيرُ يَومَ الدَجنِ وَالدَجنُ مُعجِبٌ
بِبَهكَنَةٍ تحتَ الطِرافِ المُعَمَّدِ

نسب الشاعر

هو الشاعر الجاهلي الكبير – رغم حداثة سنه – "طرفة بن العبد" بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر ابن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بين ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان .

وتختلف المصادر الأدبية في تحديد سنة ميلاده . إذ ليس من السهل تحديد تاريخ ميلاده تحديداً قاطعاً– خاصة – في مثل هذه الفترة التي نقلت إلينا عن طريق الرواية وليس عن طريق الكتابة . ويكاد يجمع الرواة

والإخباريون على أن طرفة عاش على وجه التقريب ما بين ٥٣٥ - ٥٦٨م، غير أن "البستاني" حاول أن يضبط تاريخ ميلاده فقال : "أما نحن فلا نرى بأساً في جعل مولد طرفة سنة ٥٤٣م، إذ لا نعرف رواية تخالف ذلك، ولا نرى ما ينافيه من الحوادث التاريخية .

ومن المرجح أن يكون طرفة قد ولد في هذا التاريخ الذي حدده البستاني بـ ٥٤٣م، باعتباره قال الشعر صغيرا، ثم التحق ببلاط ملك الحيرة عمرو بن هند الذي قربه إليه في بداية الأمر . ثم ما لبث أن اظهر حقدا عليه فأرسله إلى عامله بالبحرين ليقتله وذلك قبل انتهاء فترة حكم عمرو بن هند سنة ٥٦٨م، الذي حكم على وجه التقريب من سنة ٥٥٤م إلى ٥٦٨م، ومن ثم يكون طرفة قد توفي أو قتل قبل هذا التاريخ بقليل .

وجاء في كثير من المصادر الأدبية القديمة أن طرفة يعود نسبه إلى بكر بن وائل، غير أن أبا بكر محمد بن القاسم الأنباري استأنف في التعريف بنسبه حتى وصل به إلى عدنان فقال معرفاً به : "هو طرفة بن العبد بن سفيان، بن سعد، بن مالك، بن ضبيعة، بن قيس، بن ثعلبة، بن عكابة، بن صعب، بن علي، بن بدر، بن وائل، بن قاسط، بن نهب، بن أقصى، بن دعمي بن جديلة، بن أسد، بن ربيعة، بن نزار، بن معد، بن عدنان .

وبذلك ينتسب طرفة إلى قبيلة لها مكانتها المرموقة في التاريخ العربي القديم، ويظهر ذلك حين يفخر بأصله ونسبه، لأنه من بني وائل بن قاسط التي تفرعت من قبيلتي بكر وتغلب . فكان له الاعتزاز بانتمائه البكري من نسب الأب والتغلبي من نسب الأم، فجمع بين حيين عريقين لهما مكانتهما المسموعة . يقول في ذلك :

وتفرعنـــا من ابني وائـــل   هامة العز وخرطوم الكرم
من بني بكر إذا ما نسبوا   وبني تغلب ضرّابي البهم

وطرفة لقب غلب عليه، واسمه الحقيقي "عمرو" بن العبد، وقد سمي "بطرفة" نسبة إلى "الطرفاء" وهو شجر الإثل، وذلك لبيت قاله:

لا تعجـلا بالبكـاء اليـوم مطرفا
ولا أميريكـما بالـدار إذ وقفـا

وعاش طرفة يتيماً حيث فقد حنان الأبوة، إذ مات أبوه وتركه وهو صغير السن، فأراد أعمامه أن يقسموا له ما خلفه من مال، فقال هذه المقطوعة الشعرية في سن مبكرة، عاتبا على تصرفاتهم نحو أمه وإخوته الصغار آملا أن يعودوا إلى صوابهم فأنشد:

ما تنظـرون بحـق وردة فيـكم
صـغر البنـون ورهـط وردة غيب
قـد يبعث الأمـر العظيـم صغيره
حتى تظـل لـه الدمـاء تصبب
والظلـم فـرق بين حـيي وائـل
بـكر تساقيهـا المنايـا تغـلب
قـد يورد الظلـم المبيـن آجنـا
ملحاً يخالـط بالذّعـافِ ويقشب
وقـراف من لا يسـتفيق دعـارة
يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب
والإثـم داء ليس يـرجـى بـرؤه
والبـر بـرءُ ليس فيـه معطـب
والصـدق يألفـه اللبيـب المرتجـى
والكذب يألفـه الدنـيُّ الأخـيب
ولقـد بـدا لي أنـه سيغولنـي
ما غـال عادا والقـرون فاشعبوا

أدوا الحقــوق تفـر لكـم أعراضـكم
إن الكريـم إذا يحــرب يغضـــب

وأظن كما يظن الكثيرون معى أن موت والده وتركه وهو بعد صغير السن، وظلم أعمامه لأمه وإخوته الصغار هو الذي وجه الشاعر توجيهاً خاصاً، صبغ أدبه بالتأمل والتفكير في هذه الحياة واكسبه اليتم وظلم ذوى القربى فسحة من الوقت كي يتدبر الحياة وما فيها. كما عجل ذلك بإنضاج موهبته مبكرا وحفزه نحو الشعر مبكراً . . علاوة على أنه قد ورث موهبة فطرية من بيئة تمرس صاحبها بالشعر .

فقد كان والده شاعراً، وكان أبوه العبد بن سفيان أخاً للمرقش الأصغر وابن أخ للمرقش الأكبر، وكلا المرقشين شاعر معروف، وكانت أمه وردة أخت المتلمس جرير بن عبد المسيح وهو شاعر معروف كذلك فضلاً عن أخته الخرنق الشاعرة، وجده لأمه عمرو بن قميئة .

وبذلك يكون شاعرنا قد عاش في أسرة شاع قول الشعر بين أفرادها، مما يسر له قول الشعر وهو صغير، فكان لهذه الأسرة الأثر الكلي في تكوين ثقافته ونبوغه، كما جاء في رأي الباحثين من أن : ثقافة الشعر لطرفة تصله بالتراث الذي تطور في بطن قيس بن ثعلبة من بني بكر بن وائل، ولا تزيد البيئة العراقية إلى ثقافته تلك إلا لمسات خفيفة .

ويُروى أنه كان مع عمه في سفر، وهو بعد صغير السن، فأرادا أن يستريحا من عناء السفر فنزلا على ماء، فذهب طرفة بفخ له فنصبه للقنابر، وهو على ذلك ماكثاً معظم يومه دون أن يصيد شيئاً، وبعد يأسه من ذلك حمل فخه وعاد إلى عمه، فتحملا ورحلا من ذلك المكان، فرأى طرفة بعـد ذلك القنابـر يلقطـن ما نثـر لهن من الحب فقال :

تنكرها وترى فيها إخلالاً بالعقد الاجتماعي القائم بينه وبين أبنائها والذي كان يفرض على شعرائها ذلك العقد الفني". عند ذلك ترك قومه وظل هائماً في الصحراء كما في قوله:

ولا غـرو إلا جـارتي وسـؤالها
ألا هـل لنـا أهـل سئلت كذلك
تعيرني طـوف البـلاد ورحلتـي
ألا رب دار لِـي سوى حـر دارك
وليس امرؤ أفنى الشـباب مجاوراً
سـوى حيِّـهِ إلا كآخـر هـالك

ولا أنيس له في الصحراء في ذلك سوى ناقته التي لازمته وأعانته على ترحاله، فكانت له رفيقة أمينة، وكان هو الآخر أميناً لها حيث صورها لنا بصورة حية مطيلاً في وصفها لما وجده فيها من الأنس والعون، فكان بفضلها أن طاف أرجاء الصحراء التي قذفته إلى بلاد اليمن وتجاوز ذلك إلى أن وصل إلى النجاشي في الحبشة، كما ذكر ذلك الأعلم الشنتمري في مقدمة قصيدة لطرفة .

ثم ما لبث أن عاد إلى قومه بعد أن فشل في كل المحاولات بشأن تحقيق أحلامه في تحسين وضعه أو فيما كان يصبو إليه - ظناً منه - في إيجاد عالم مثالي غير عالمه القاسي مع عشيرته . فلم يجد بداً من العودة إلى قومه وعشيرته، وهم في ذلك غير مبالين به، سواء رجع أم تمادى في هجره إياهم، فكان مما قاله بعد عودته لهم :

ولقـد كنت عليكم عاتبـاً	فعقبتم بذنوب غير مـر
كنت فيكم كالمغطي رأسـه	فاجلى اليوم قناعي وخمر
سـادراً أحسب غيِّي رشدا	فتناهيت وقد صابت بقـر

وساء طرفة أن يعود إلى عشيرته "بخفي حنين" لأنه يعلم جيداً أن لا شيء ينتظره سوى أن يحمِّله أخوه "معبد" رعي إبله .

وكانت الحيرة أيام عمرو بن هند موئلاً لكثير من الشعراء، لما كان يغدقه ملكها من عطايا وهبات جزيلة، مقابل أن يرفع الشعراء من شأنه . وقد أراد طرفة كغيره من الشعراء أن يجرب حظه مع عمرو بن هند، لكن نخوة طرفة وأنفته لم تصبر على تصرفات الملك عمرو الذي كان شديداً، صارماً في حكمه، لا يبتسم ولا يضحك، وكانت العرب تسميه مضرط الحجارة، وتهابه هيبة شديدة، بل جعلوه شريرا "وكان له يوم بؤس، ويوم نعيم، فيوم يركب في صيده يقتل أول من يلتقي به، ويوم يقف الناس ببابه فإن اشتهى حديث رجل أذن له وكان هذا دهره .

وفي رواية أخرى عن أحمد بن عبيد قال : "كان إذا ركب في يوم نعيمه لا يلقى أحداً إلا أعطاه ووهب له وقضى في حاجاته، وإذا ركب في يوم بؤسه لم يلق أحداً إلا قتله .

مكث طرفة في بلاط الحيرة واستقبله عمرو بن هند بحفاوة وقربه إليه وكان من ندمائه أخوه قابوس، وبعد أن رأى طرفة من عمرو بن هند ما ساءه فاضت قريحته شعراً، فهجا عمرو بن هند وهجا أخاه قابوس .

روايات عن مقتله

وقد كثرت اختلافات الرواة بشأن قصة طرفة مع الملك وسبب هجائه له . وخلصت تقريبا إلى ما يلي :

(تذكر معظم المصادر القديمة التي أوردت خبر طرفة أن سبب هجائه عمرو بن هند هو أن عمراً هذا كان يتباطأ في استقبال الناس وخصوصاً الشعراء الذين جاءوا من كل مكان رجاء عطاياه، إذا به يتأخر في استقبالهم، فصاروا يتكالبون على بابه ليجدوا وقتاً يدخلون فيه عليه، فاستاء طرفة من هذه

المعاملة وقال شعراً يهجوه فيه . وربما كان من سبب غضب عمرو بن هند على طرفة أنه قال شعراً في أخيه قابوس الذي كان يحب الصيد وشرب الخمر، وكان أن قسم الدهر – هو أيضاً – يومين، يوماً يصيد فيه ويوماً يشرب فيه ، وكان يتأخر في استقبال الشعراء إلى العشي، فتذمّر طرفة من هذه المعاملة فهجاه وهجا أخاه عمرو بن هند بقوله :

وليت لنا مكان الملك عمرو رغوثاً حول قبتنا تخور
لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير
قسمت الدهر في زمن رخيٍّ كذاك الحكم يقصد أو يجور

وفي رواية أخرى أن طرفة لما أضاع إبل أخيه معبد ادعى جوار الملك عمرو، وكان قد تباطأ في رد الإبل إلى طرفة انتقاماً منه لأنه كان في مسيرة مع عمرو بن أمامة ، فأضم عليه ، أي حقد عليه – وكانت أول موجدة عليه ، فبعث عمرو بن هند إلى إبل طرفة التي كانت في جوار قابوس فأخذها فقال طرفة :

لعمرك ما كانت حمولة معبد
على جدها حرباً لدينك من مضر
وكان لها جاران قابوس منهما
حذار ولم استرعها الشمس والقمر
وعمرو بن هند كان ممن أجارها
وبعض الجوار المستغاث به غرر
فمن كان ذا جار يخاف جواره
فجاراي أوفى ذمة وهما أبر
أعمرو بن هند ما ترى رأي صرمة
لها شنب ترعى به الماء والشجر

ويذكر ابن قتيبة رواية مفادها أن طرفة كان ينادم عمرو بن هند فأشرفت ذات يوم أخته ، فرأى طرفة ظلها في الجام الذي في يده فقال :

ألا يا بأبي الرِّيم الذي يبرق شنفاه
ولولا الملك العالي لقبّلت لـه فـاه

فحقد ذلك عليه .

وتجتمع هذه الأسباب كلية في أن عمرو بن هند كان ناقماً على طرفة، فحاول التخلص منه بعد أن تسربت له كل الأشعار التي هجاه فيها عن طريق عبد عمرو الذي يعد من سادة الناس آنذاك مما جعل عمرو بن هند يقربه إلى حاشيته، وكان زوجاً لأخت طرفة ، وقد هجاه طرفة ذات يوم، وكان مما قاله فيه :

يا عجباً من عبد عمرو وبغيه
لقد رام ظلمي عبد عمرو فانعما

فشاع هذا النوع من الهجاء في عبد عمرو بين الناس، وبلغ مسامع عمرو بن هند . . واتفق أن خرج الملك ذات مرة إلى الصيد وخرج معه نفر من حاشيته وكان من بينهم عبد عمرو صهر طرفة ، وكان الملك قد أصاب طريدة فنزل وقال لأصحابه اجمعوا حطباً ، وفيهم عبد عمرو فأوقد ناراً وشوى ، فبينما الملك يأكل من شوائه وعبد عمرو يقدم له الطعام ، إذ نظر إلى خصر قميصه منخرقاً فأبصر كشحه ، وكان من أحسن الناس كشحاً وجسماً ، وكان طرفة قد قال فيه :

ولا خير فيه غير أنّ له غنى
وأن له كشحاً إذا قام أهضما

فتمثل الملك بهذا البيت سخرية منه، فغضب عبد عمرو وقال : قد قال طرفة للملك أقبح من هذا !

فقال الملك: ما الذي قال؟ فندم عبد عمرو مما سبق منه وأبى أن يسمعه، فقال : أسمعنيه وطرفة آمن. فأسمعه القصيدة التي هجاه فيها فسكت عمرو بن هند على وقر في نفسه، وكره أن يعجل عليه لفطنة أحد جلسائه الذي نبهه وقال له : إنك إن قتلت طرفة وأبقيتُ المتلمس هجاك وانتقم منك لما له من مكانة، بحكم كونه مجرباً ومسناً .

وكان المتلمس قد هجا عمرو بن هند أيضاً بعدة قصائد فلبث الملك يتحين الفرصة السانحة للانتقام منهما، حتى اطمأنا إليه، فلما قدما إليه ذات مرة كتب لهما صحيفة إلى عامله بالبحرين . وكان يوم ذاك ربيعة بن الحارث العبدي، وقال لهما الملك انطلقا إليه، فإن في هذه الصحيفة أمر بجوائزكما أي أنه أوهمهما أن في كتابيهما أمر بمنح جائزة لكل منهما

وأخذ الشاعران -- طرفة والمتلمس -- صحيفتيهما ظناً منهما أن عمرو بن هند يأمر عامله بإعطائهما الهدية، فحملا الصحيفتين وسارا معاً حتى وصلا النجف، فارتاب المتلمس بأمر هذا الكتاب وقال لطرفة : إني لأخاف عليك من نظرة الملك إليك بعد أن هجوته، وإنك غلام حديث السن، والملك من عرفت حقده وغدره وكلانا قد هجاه، فهلم ننظر فيما كتبه لنا – فأقبلا حتى نزلا الحيرة – حينذاك فك المتلمس ختم صحيفته وعرضها على غلام من أهل الحيرة فقرأها وإذا بها أمر بقتل المتلمس، وأشار إلى طرفة بفك صحيفته -- هو أيضاً – فأبى، ورمى المتلمس صحيفته في نهر بالحيرة، كما جاء في قوله :

وألقيتهـــا بالثني من جنب كافـر
كذلك أقنــو كـل قـــط مضـلل

مضى طرفة إلى عامل البحرين فكانت هناك نهايته ومع ذلك ودون خوف وبعزة .

وفي رواية مشابهة لهذه تروى عن المتلمس أنه قال : بعد أن كتب الملك "خرجنا حتى إذا هبطنا بذي الركاب من النجف، إذا أنا بشيخ على يساري يتبرز ومعه كسرة يأكلها وهو يقصع القمل، فقلت: تالله ما رأيت شيخاً أحمق وأضعف وأقل عقلاً منك، قال : وما تنكر؟ قلت : تتبرز وتأكل وتقصع القمل، قال : أدخل طيباً وأخرج خبيثاً وأقتل عدواً، وأحمق من الذي يحمل حتفه بيمينه لا يدري ما فيه . قال : فنبهني وكأنما كنت نائماً، فإذا غلام من أهل الحيرة فقلت : يا غلام تقرأ ؟ قال : نعم قلت : اقرأه فإذا فيه : من عمرو بن هند إلى المكعبر، إذا جاءك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً، فألقيت الصحيفة في النهر .

وقلت يا طرفة : معك مثلها، قال : كلا ما كان يفعل ذلك في عقر داري قال : فأتى المكعبر فقطع يديه ورجليه ودفنه حياً، ففي ذلك يقول المتلمس :

من مبلغ الشعراء عن أخويهم
نبأ فتصدقهم بذاك الأنفس
أودى الذي علق الصحيفة منهما
ونجا حذار حبائه المتلمس
الق الصحيفة لا أبا لك إنه
يخشى عليك من الحباء النقرس
ألقى صحيفته ونجت كوره
وجناء مجمرة الفراسن عرمس
أجد إذا ضمرت تعزز لحمها
وإذا تشد بنسعها لا تنبس

ولقد تعددت الروايات بشأن مقتل طرفة مما يصعب تبيان الرأي الصحيح والاعتماد عليه، لكنها تكاد تكون متفقة على أن عمرو بن هند غضب على طرفة والمتلمس فأراد أن ينتقم منهما لهجائهما له .

بينما ذهب الشريف المرتضى إلى أن قاتل طرفة هو النعمان بن المنذر امتثالاً بقول طرفة :

أبا منـــذر كانت غـــروراً صحيفتي
ولم أعطكم في الطوع مالي ولا عرضي
أبا منـــذر أفنيت فاستبق بعضنـا
حنانيك بعض الشر أهـون من بعض

وتذكر الأخبار أن النعمان بن المنذر قد تولى الحكم بعد مقتل طرفة بنحو سبع عشرة سنة، وقوله أبا منذر في هذين البيتين لا يكفي للدلالة على أن المعنى بقوله هو النعمان بن المنذر، فعمرو بن هند هو ابن المنذر أيضاً ويمكن أن يكنى بأبي المنذر ويذكر ابن قتيبة عن رواية أن الذي تولى قتله بيده هو معاوية بن مرّة الأيغلي . وذهب لويس شيخو في سرد القصة عن بعض الروايات، إلى أن عامل البحرين بعد أن قرأ صحيفة طرفة سأل عن المتلمس فأخبره بفراره، فعفا عنه لصدقه ورعايته لطابع الملك حيث لم يكفه، وقيل أنه سجنه وبعث إلى عمرو بن هند، وقال ما كنت لأقتل طرفة وأعادي قبيلته، فإذا أردت قتله فابعث إليه من يقتله ففعل وخيِّر في قتله، فاختار أن يسقى الخمر ويفصد أكحله، ففعل به ذلك حتى مات نزفاً ودفن بهجر، يقول البحتري في ذلك :

ولقد سكنت إلى الصدود من النـوى
والشّري أريٌ عنـد أكل الحنظـل
وكذاك طرفة حين أوجس ضربـة
في الرأس، هان عليه قطع الأكحل

وقيل في قتله غير ذلك . . قيل أن عامل البحرين أمر بدفنه حياً . . . !

والواقع أن مثل هذه الروايات والأخبار - بحسب ما يظهر - إنما يكثر فيها الإسراف والمغالاة، كان القصد منها وضع خبر طرفة - شأن غيره من الشعراء المشهورين - في قصص منمق، وفي ذلك شك كبير، من حيث أنها محاولة للإيثار، تحبيباً لإسماع الناس إليها شأن كثير من الأخبار القديمة التي كانت من نسج الخيال، القصد منها الاستمالة والترغيب في الإسماع ليس غير .

لكن على الأرجح أنه مات على يد عامل عمرو بن هند بالبحرين، وفي سن مبكرة فلقب نتيجة ذلك "الغلام القتيل" وقيل له أيضاً "ابن العشرين" إذ أصبح اسم طرفة لا يذكر إلا إذا اقترن به، وذلك في كونه لم يتجاوز سن السادسة والعشرين امتثالاً بقول أخته الخرنق الشاعرة في رثائه :

عددنا له ستاً وعشرين حجة

فلما توفاها استوى سيداً ضخما

فجعنا به لما رجونا إيابه

على خير حال لا وليداً ولا قمحا

وجاء في بعض الروايات يذكرها أبو زيد القرشي أن طرفة قال لعامل البحرين حين أراد أن يقتله أنظرني شهراً فقال : ولات حين مناص، فقال : أنظرني عشرة أيام، فقال : ما أمرت بذلك، فقال طرفة في اليوم الأول شعراً وأرسل به إلى أخويه، خالد، ومعبد، ابني "العبد" يقول فيه :

ألا أيها الغادي تحمّل رسالة

إلى خالد مني وإن كان نائيا

وصية من يهدي السلام تحية

ويخبر أهل الود أن لا تلاقيا

خرجنا وداعي الموت فينا يقودنا

وكان لنا النعمان بالسيف حاديا

ويروى أيضاً أنه قال قبل صلبه وكان في حسب من قومه يحرضهم للثأر منه :

فمن مبلغ أحياء بــكر بن وائـــل

بأن ابن عبـد راكب غير راجـــل

على ناقة لم يركب الفحل ظهرها

مشذّبة أطـرافهــا بالمناجـــل

ويظهر أن رواة الأخبار وجدوا في طرفة شخصية جذابة لحداثة سنه ، ولما وقع له مع عمرو بن هند بشأن مقتله ، فكان نتيجة ذلك أن تعددت الأخبار التي يصعب التفريق بين صحيحها والزائف . لكن الثابت أنه بمقتل طرفة بن العبد في ربيع عمره وفي بداية عطائه حرم عشاق الأدب العربي والباحثون في علوم الصحراء والبداوة وتاريخ العرب من مصدر خصب كان يمكن أن يزوّدهم بالمعلومات التي يحتاجونها ، وحرموا من عطاء خيال مبدع .

وقد عده معظم النقاد القدامى والمحدثين من الشعراء الفحول، وربما أول ما يقبل التعرض إلى رأي القدماء في شعره هو ما قالته أخته الخرنق بعد أن رثته بقولها :

عــددنا له ستاً وعشرين حجـة

فلما توفاها استوى سيداً ضخما

وقولها استوي سيداً ضخما يبرر ما له من مكانة أدبية في عصره وهو بعد صغير السن . وكان مما قاله ابن سلام الجمحي : فأما طرفة فأشعر الناس واحدة : (يعني معلقته) وتليها أخرى مثلها وهي :

أصحوت اليــوم أم شاقتك هر

ومن الحـب جنـــون مستعــر

ويذكر الأنباري بإسناده إلى أبي عبيدة الذي قال: أجود الشعراء قصيدة واحدة، جيدة طويلة، ثلاثة نفر : عمر بن كلثوم والحارث بن حلزة، وطرفة بن العبد .

وجاء في رواية أخرى عن أبي عبيدة يذكرها ابن قتيبة أنه قال :

مر لبيد بمجلس لنهد بالكوفة، وهو يتوكأ على عصا، فلما جاوز أمروا فتى منهم أن يلحقه فيسأله :

من أشعر العرب ؟ ففعل .

فقال لبيد: الملك الضليل يعني امرؤ القيس .

فرجع فأخبرهم قالوا : ألا سألته : ثم من ؟

فرجع فسأله : فقال : صاحب المحجن يعني نفسه .

ويذكر الجاحظ أنه ليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد، وعبد يغوث، وذلك أننا إذا قسنا جودة أشعارهما في حال الأمن والرفاهية .

وقال أبو العلاء المعري على لسان محاوره مخاطباً طرفة في رسالة الغفران : ولو لم يكن لك أثر في العاجلة إلا قصيدتك التي على الدال لكنت قد أبقيت أثراً حسنا .

ويظهر من خلال هذه الآراء أنها تروي منزلة طرفة الشعرية التي أحرزها بين شعراء عصره، فاعتبر من متقدمي الفحول وأسبقهم إلى الإجادة في معظم إبداعه الفني وبخاصة في ابتكاره بعض المعاني . واتفق النقاد على أن طرفة لم يسبقه في الجودة غير امرئ القيس، بل ربما كان طرفة أجود منه في وصف الناقة حيث أبدع في وصفه.

كأن علـوب النسـع في دأباتهـا
موارد من خلقاء في ظهـر قـردد
وأتلـع نهـاض إذا صـعدت بـه
كسكـان بـوصي بدجلـة تصـعد
وجـمجـمـة مثـل العـلاة كأنـمـا
وعي الملتقي منها إلى حرف مبـرد
وخد كـقـرطـاس الشـامي ومشفـر
كسبـت اليمـانـي قـده لـم يجـرد
وعـيـنـان كالماويتيـن استكـنـتـا
بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد
طـحوران عـوار القـذى فتراهما
كمكـحـولتي مـذعورة أم فرقـد
وصـادقتا سـمع التـوجـس للسرى
لـهجـس خفـي أو لصـوت منـدد
مؤللـتـان تعـرف العتق فيـهمـا
كسامـعـتي شـاة بحـومل مفـرد
وأروع نـبـاض أحـذ ملـملـم
كمرداة صخـر في صفيـح مصمـد
وأعلـم مخـروت من الأنف مـارن
عتيق متى ترجـم بـه الأرض تـزدد
وإن شئت لم ترقـل وإن شئت أرقلت
مخافـة ملـوي من القـد محصـد

أحلت عليهـا بالقطيـع فأجـذمت

وقـد خـب آل الأمعـز المتوقـد

فذالت كمـا ذالـت وليـدة مجلس

تري ربهـا أذيـال سحـل ممـدد

ثم ختم حديثه عن الناقة بأنه عليها يخترق المسالك الوعرة ويجوب المفازة المهلكة لأنه هو الفتى المرجى عند الشدائد فكان ذلك افتتاحية للحديث عن نفسه فى فخر شخصى :

على مثلها أمضى إذا قال صاحبـى

ألاليتنـي أفديك منهـا وأفتـدي

وجاشت إليه النفس خوفاً وخالـه

مصاباً ولو أمسى على غير مرصد

إذا القـوم قالـوا من فتى خلت أننى

عـنيـت فلـم أكسـل ولم أتبـلد

وهنا تحدث عن نفسه بما يصوره شخصيا . . كريم الأخلاق ذا مكانة اجتماعية ممتازة وبطلا شهما ذائع الصيت . . فهو لا يحل فى بيت متوار من الناس حتى لا يعرفه ابن السبيل ولا الضيف وهو من بين ذوى الرأى فى المجتمعات وبين الشاربين فى الحوانيت وإن افتخر الناس فهو فى ذروة المجد ندامأه من علية القوم يسرف فى الإنفاق والإتلاف حتى غضبت منه العشيرة ويقصدد الفقراء والأغنياء الأولون لأنه يعطيهم . . والأغنياء لمكانته وجلالته ولا يستمع لمن يلومه على دخوله الحرب والتمتع بالملذات لأنه لا ضمان للخلود . . وهنا يذكر رأيه فى الحياة وهو رأى جاهلى لا يؤمن بالحياة الآخرة فيرى أن الحياة تنتهى بالموت وخير للإنسان أن يغتنم فرصة حياته ليمتع نفسه بما

يستطيع منها ولا يحرص على المال فلن يفيده شيئا ولن يتميز قبر الممسك عن قبر المتلف فكلاهما كومة من تراب وحجارة فمما قاله :

ولست بحلال التلاع مخافةً
ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغني في حلقة القوم تلقني
وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحي الجميع تلاقني
إلى ذروة البيت الرفيع المصمد
نداماي بيض كالنجوم وقينة
تروح علينا بين برد ومجسد
رحيب قطان الجيب منها رقيقة
بحبس الندامى بضة المتجرد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا
على رسلها مطروقة لم تشدد
إذا رجعت في صوتها خلت صوتها
تجاوب أظار على ربع رد
ومازال تشرابي الخمور ولذتي
وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها
وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بني غبراء لا ينكرونني
ولا أهل هذاك الطراف الممدد

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

فذرني أورى هامتى فى حياتها
مخافة شرب فى الحياة مصرد

كريم يروي نفسه في حياته
ستعلم إن متنا غدا أينا الصدى

أرى قبر نحام بخيل بماله
كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما
صفائح صم من صفيح منضد

ثم يتحدث عن الموت والإنسان وعمره فيقول :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدد

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ
وما تنقص الأيام والدهر ينفد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكالطول المرخي وثنياه باليد

ثم يذكر أمانيه فى الحياة ومتعته منها . كأنه يرى من صفاته التى يخلعها على نفسه أنه شخص كريم سمح الأخلاق يريد أن يعيش أيامه فى

سلام وأمن ومتعه يحب الناس ويحبونه ويألفهم ويألفونه وهنا يتعجب من سلوك الظالمين والمعتدين والوشاة والمفسدين وبخاصة إذا كانوا من الأقارب الذين يجب أن يكونوا عونا وسندا وملجأ وأمنا فسلوكهم المعيب بعضهم مع بعض مؤلم أشد الألم واعتداء أحدهم على الآخر شديد المرارة وانكى من ضرب السيف ولهذا يحز في نفسه أن يكون له ابن عم يسئ إليه ويعتدى عليه مع أنه لا يستحق ذلك فيقول:

يلــوم ومــا أدري عـلام يلومني
كما لامني في الحي قرط بن معبد
فما لي أرانــي وابن عمي مالكـا
متى أدن منه يـنأ عني ويبعـد
وأيأسني من كل خـير طلبتـه
كأنـا وضعنـاه على رمس ملحد
على غـير ذنب قلتـه غـير أنني
نشـدت فلم أغفل حمولة معبد
وقــربت بالقربى وجـدك إنني
متى بـــك أمر للنكيثة أشهــد
وإن أدع للجــلي أكن من حماتهــا
وإن يأتك الأعداءُ بالجهـد أجهــد
وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهـم
بكأس حياض الموت قبل التهـدد
بلا حدث أحدثتــه وكمحــدث
هجائي وقذفي بالشكاة ومطــردي

فلو كان مولاي امرأ هــو غيره

لفرج كربي أو لأنظرني غـدي

ولكن مولاي امــرؤ هـو خانقي

على الشكر والتسآل أو أنا مفتــدي

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

فذرني وخلقي إنني لك شـاكر

ولو حل بيني نائباً عند ضرغـد

فلو شاء ربي كنت قيس بن خـالد

ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثـد

فأصبحت ذا مالٍ كثير وزارنـي

بنـون كـرام سـادة لـمسود

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونــه

خشـاش كرأس الحيـة المتوقـد

آليت لا ينفـك كشحي بطانــة

لعضب رقيق الشـفرتين مهنـد

وهنا استشاط غضبا وثارت حميته لهذا السلوك الذى يتنافى مع ما يستحقه من التكريم والتعظيم فانطلق ثانية مفتخرا بنفسه فصفاته تجعله فى مصاف العظماء، فهو إن كان فقيرا فإنه شديد نشيط يتوقد ذكاء وفطنة ولا يفارق كشحه السيف الذى لا يثنى ضربته وقطعه أسرع من الصوت وهو كريم ترهبه الإبل إذا دخل عليها بسيفه لأنها تعلم أنه لابد قاتلها وموته خسارة لا تعوض فلن يملأ فراغه إنسان وهو كريم طموح سريع إلى العظائم بطيء عن الدنايا نابه

الذكر ذائع الصيت يرهبه الجميع فرادا وجماعات لا يغمه أمر ولا يطول عليه ليل فلا تستعصى عليه مشكلة يحبس نفسه على الشدائد وفي الحروب ومواطن الهلاك ويدخل الميسر بدون انتظار مغنم ومن قوله فى هذا :

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه
خشاش كرأس الحيـــة المتوقد
فآليت لا ينفـك كشحى بطانــة
لعضب رقيق الشفرتين مهند
حسام إذا ما قمت منتصراً بـــه
كفى العود منه البدء ليس بمعضد
أخي ثقة لا ينثني عن ضريبةٍ
إذا قلت مهلاً قال حاجزه قدي
إذا ابتدر القوم السـلاح وجدتني
منيعــاً إذا بلت بقائمه يــدي
وبرك هجود قد أثارت مخـافتي
بواديها أمشي بعضبٍ مجـرد

ثم يختم قصيدته بأن الحياة كثيرة العجائب والأيام تظهر الخفى وتسوق إليك من ينبئك بدون ان تكلفه أو تطلب منه :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبـار من لم تـزود
ويأتيك بالأنباء من لم تبع لـه
بتاتا ولم تضرب له وقت موعـد

ألا يستحق هذا الشاعر الشاب بمعلقته وما فيها من تصوير بديع لشخصيته وطموحه وحبه للحياة وعبه منها عبا وشاعرية فذة رغم عمره القصير وتجسيده لملامح عصره . . نظرة مغايرة جديدة نستقيها من خبرة الشاعر الشخصية ونظرته لحياته رغم ما وقع عليه من ظلم . . ألا يستحق منا دراسات مستقبلية فى ضوء علم النفس واستكشافه للنفس البشرية وخاصة اللاشعور الذى يحرك الفرد وحرك الشاعر هنا نحو الحياة والاستمتاع بها غير هياب بما يأتى به المستقبل وهو يعلم مسبقا أن الأيام ستبدى له ما كان جاهلا . . !

كما أن بعض النقاد فضلوا معلقة طرفة على جميع الشعر الجاهلي لما فيها من الشعر الإنساني - العواطف المتضاربة - الآراء في الحياة والموت - جمال الوصف - براعة التشبيه، وشرح لأحوال نفس شابة وقلب متوثب محب للحياة بطريقته الخاصة .

وأظن أنه، أى طرفة، يتجلى لنا شاعراً جليلاً من فئة الشبان الجاهليين ففي معلقته من الفوائد التاريخية الشيء الكثير كما صورت ناحية واسعة من أخلاق العرب الكريمة و تطلعنا على ما كان للعرب من صناعات و ملاحة و أدوات . . وفي قراءة معلقته ندرك ما فيها من فلسفة شخصية و من فن و تاريخ . . وندرك عمق خسارتنا فى موت شاعرنا مبكرا فكنا نرجو منه الكثير حيث هو عليم بحياة البداوة والصحراء . . حقا هو الغلام القتيل كما أطلق عليه نقاد الشعر . . !

د. محمود عطية